الفصل الثالث
الدويلات المستقلة فى آسيا الوسطى
الطاهرية - الصفارية - السامانية - الغزنوية - السلاجقة - الخوارزمية

أ - الدولة الطاهرية ٢٠٥ - ٢٥٩ / ٨٢١-٨٧٢م

ظهرت دولة الطاهرين فى بلاد خراسان وما وراء النهر والتركستان الشرقية والغربية كأول دولة مستقلة فى المشرق الإسلامى، وقد اتخذت مدينة مرو أولا كعاصمة لها وسيطرت على حكم خراسان وما وراء النهر، وقد اتخذت اسمها من مؤسسها طاهر بن الحسين.

وكانت حركة العصيان فى خراسان وبلاد ما وراء النهر فى المشرق بعد عودة المأمون إلى بغداد قد أدت إلى اختلال الأحوال السياسية فكان قرار المأمون فى إسناد حكم هذه الأنحاء (تركستان الشرقية والغربية وما وراء النهر وخراسان) إلى طاهر بن الحسين وقد استقامت الأمور فى هذه النواحى. وقد أقام الطاهريون (٢٠٥ - ٢٥٩هـ/ ٨٢١ - ٨٧٢م) دولة حكمت هذه الأرجاء الشرقية من خراسان وأنها ظلت تعترف بالسيادة العباسية وقد قام الطاهريون بحماية خراج بلاد المشرق جميعها والقضاء على الفتن والثورات التى كانت تظهر ضد العباسيين.

وقد حرص كل ولاة الطاهريون على تحسين علاقاتهم بالخلفاء العباسيين وراعوا حقوق الدولة فى شئون الحكم والإمارة بل وقفوا إلى جانبهم فى القضاء على حركات العباسيين وراعوا حقوق الدولة فى شئون الحكم والإمارة بل وقفوا إلى جانبهم فى القضاء على حركات التمر والعصيان ولقد كان إنشاء حكم مستقر فى خراسان وبلاد ما وراء النهر قد أعاد السلم للبلاد حيث شجع الطاهرين حركة التعليم والفقه والشريعة.

وقد أبدى الطاهريون اهتماما كبيرا بجميع مدن ما وراء النهر، لأنها كانت جميعها مدن ثغرية للمسلمين أقيمت فى وجه الأتراك لصدهم عن انتهاك ديار

الإسلام فاتخذت هذه المدن المحصنة لتكون أبراجا لمراقبة الترك وقواعد ينطلق منها المرابطون لرد غارات الترك لكى تكون هذه المدن ذات فاعلية دفاعية فقد شحنت بالقوة الحربية لتقوم بدور الدفاع عن إقليم خراسان وما وراء النهر وحماية حدودها من هجمات الأتراك وتؤدى هذه المدن مهمتها فى حماية الإسلام على أكمل وجه وكذلك زاد اهتمام الطاهريين فى هذه المدن وولايتهم على خراسان بجميع مدن بلاد ما وراء النهر التى كانت تقع تحت دائرة خراسان فقد أدركوا بثاقب نظرهم حجم الخطر الذى يهدد ما وراء النهر من قبل الأتراك الشرقيين الذين كانوا يغيرون على حدود هذا الإقليم لذا فقد قام عبد الله بن طاهر بدرء الخطر التركى فعمر الرباطات بخراسان وما وراء النهر وأصبح ما وراء النهر فى أيام الطاهريين بعدا إسلاميا يأتيه المجاهدون والمتطوعة ليسهموا فى الجهاد ضد الأتراك وقد نظم الطاهريون أمور بلاد ما وراء النهر.

واستطاع الطاهريون بجهدهم الذاتى حماية الأطراف تجاوزوها من مرو إلى خوارزم وأسروشنه وكاشغر وفرغانه ولقد كان السامانيون الساعد الأيمن للطاهرين فى تتبع الأتراك واجتثاث جذورهم فيما وراء النهر وقد شهدت هذه البلاد الاستقرار والأمان وقد أشار الاصطخرى فى كتابة مسالك الممالك إلى الأربطة فى بلاد ما وراء النهر (أواسط آسيا) والتركستان الشرقية والغربية حيث قال منهم مدن يقيم فيها المرابطون وقد خطبت بعض المدن بالصلة الوثيقة بينها وبين خراسان ومن هذه المدن بخارى وسمرقند وكاشغر وفرغانه وبذلك أدى آل طاهر دورهم أحسن أداء فى حماية الأقاليم الشرقية بما فيها بلاد ما وراء النهر فى بلاد الترك الشرقيين، وذلك مما دعى الخلفاء العباسيين إلى التمسك بهم طوال(٢٠٥ - ٢٥٩هـ/ ٨٢١ - ٨٧٢م) وقد استمر الطاهريون يحكمون خراسان نحو أكثر من خمسين عاما وكانت بلاد ما وراء النهر فى تلك الفترة تبلغ إقليم خراسان وصارت بطبيعة الحال تحت حكم الطاهريين الذين اهتموا بها بحكم تواجدهم فيها ولابد أن أغلب السكان كانوا من الفرس والأتراك وجنسيات صغيرة وقد تركوا بلاد ما وراء النهر فى أيدى جماعة من آل سامان وكانت فترة استقرار بنى طاهر قليلة فى مرو ثم انتقلوا شرقا إلى نيسابور وجعلوها عاصمة لهم إلى أن سقطت دولتهم عام٢٥٩هـ/ ٨٧٢م وكان الطاهريون يدفعون جزية سنوية لدار الخلافة وظلوا على

هذا الحال حتى سقوط دولتهم وقد قاموا بأجل الأعمال للدولة الإسلامية حيث حافظوا على الثغر الشرقى ومدوا نفوذ العالم الإسلامى فى بلاد الأتراك ووطدوا سلطان المسلمين بالقضاء على الخارجين من ملوك الترك الذين دخلوا فى طاعة المسلمين، لكن بمرور الوقت ولاسيما فترة حكم أخر أمراء الطاهرين(محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين) فقد بدأت الإمارة عاجزة عن القيام بدور فعال فى حكم الثغر الشرقى نتيجة لتعرضها لثورات العلويين وقيام دولة الصفاريين.

لكن مما لاشك فيه أن حكم الطاهريين للشرق الإسلامى التركستان أواخر آسيا كان حكما صالحا فقد اهتموا بأمور الرعية وأصلحوا الأحوال الاقتصادية واقروا الآمن والأمان والاطمئنان فى كل أنحاء الإمارة كما تعهدوا عمالهم بالنظر والمراقبة وتعهدوا أهل العلم والدين والمعرفة والفقه وأصبحت نيسابور فى عهدهم مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية الزاهرة ولقد كانت الدولة الطاهرية – فى ذلك الوقت مركزا من مراكز قوة الخلافة رغم استقلالها الذاتى عنها، لكن برغم استقلال الطاهريين بخراسان وبلاد ما وراء النهر إلا أنهم كانوا أحسن حالا فى علاقاتهم بالخلافة العباسية عن كثيرا من الإمارات المستقلة حيث استمر موقف الطاهريين من الدولة العباسية يسير على نفس النهج الأول فى مؤامرة ومساندة الخلاف والعمل على نشر الإسلام والحضارة الإسلامية وصبغ هذه البلاد بالصبغة الإسلامية، والضرب على أيدى الخارجين عن الخلافة ومما يدل على ثقة العباسيين فيهم استمرار حكم أفراد البيت الطاهرى وتولى أمور خراسان وما وراء النهر حتى كان أمرائهم محمد بن طاهر الذى ظل فى إمارته حتى قدوم يعقوب بن الليث الصفارى ودخوله نيسابور عان ٢٥١ هـ / ٨٦٥م وذلك أثر اضطراب الأمور إلى فان آهل خراسان استنجدوا بالأمير الصفارى يعقوب بن الليث الصفارى لإعادة الأمور لبلادهم ووجد فرصته لتوسيع رقعة دولته على حساب الدولة الطاهرية فزحف بجيشه إلى نيسابور عام ٢٥٩هـ / ٨٧٣هـ وقبض على محمد بن الطاهر وبذلك زالت الدولة الطاهرية وهكذا كان ظهور الصفارين سببا فس سقوط الطاهريين بعد أن حكموا ما يقرب من نصف قرن فى هذه الأنحاء وعملوا على

توطيد النفـوذ الإسلامى والخضوع للخـلافة العباسيـة وعلموا على حمايـة الثغور الشرقية دفعا لأى أخطار تركية أو صينية.

ب - الدولة الصفارية فى خراسان وما وراء النهر

(٢٥٤ - ٢٩٠ / ٨٦٧ - ٩٠٣م)

كان دخول الجيش الصفارى نيسابور عاصمة الطاهريين عام ٢٥٩هـ / ٨٧٣م بداية ظهـور قوة الصفـاريين فى شرق الدولـة الإسلاميـة على حسـاب الطاهريين والسـامانيـين الذين كانـوا يبسطون ولايتـهم على بلاد مـا وراء النهر وقـد حكم الصفاريون فى الفترة ما بين (٢٥٤هـ/ ٢٩٠) وفى حقـيقة الأمر فإن ظهور يعقوب بن الليث الصـفـارى على السـاحة وسـيطرته على إمـارة الطاهريين وزيادة قـوته وسيطرته على خراسان التى تعد أهم ولاية فى الأقاليم الشرقية ولها مكانة مرموقة وسيطرته عليها يجعل بقية الإمارات الشـرقية خاتمة وفى طريقها للخضوع وبعد أن سيطرة على خراسان وحصوله على شرعية حكمـه لهذه البلاد من الخلافة العباسية فإنه بدأ يتجـه ببصرة ناحية الشرق لضم كل الأقـاليم الأخرى تحت ولاية والخروج من حيز قوة محلية محدودة إلى قوة وحيدة فى شرقه الدولة الإسلامية.

ومع أن الخلافـة العباسيـة لم تكن راضية عن توسـع الصفارين لاسيـما أن يعقوب الصـفارى مد نفوذه إلى البلاد المجاورة ولم يكتف بالسـيطرة على خراسان بل مد نفوذه شرقًا على وادى كابل والسند وضم إلى ولايته بلخ وبدأ يتطلع إلى ما وراء النهر جميعها ولذا اتبع أسلـوب شن غارات خاطفة على حدود ما وراء النهر وقـد أوقع بالأتراك وطبـرسـتـان عدة هزائـم. بل إنه سـيطر على الأهواز والرى وقزوين وأذربيجان وأوزبكستان وكرمان وبذلك استطاع يعقوب بن الليث الصفارى أن يؤس ملكا عريقا فى شرق الدولة الإسلامية يشمل معظم أجزاء فارس بالإضافة إلى سجستان وأجزاء مما وراء النهر.

ولكن لم يكن يعـقوب بن الليث الصفـارى فى بادئ الأمر يريد الاستـقلال عن الدولة العبـاسية وإنما كان يرغب فى أن يكون أمـيرا من قبل الخليفـة العباسى ليتمكن بعد ذلك من الاستيلاء على البلاد التى كـانت خاضعة جميعها للطاهريين واستطاع أن يحمل الخليفة العباسى المعـتمد بالله على الاعتراف بسلطته على البلاد

التى ضمهـا إلى حوزته وهكذا نجح يعقوب بن الليث فى تأسـيس دولة استطاعت مع قصرعمرها أن تنشر نوفذها فى مـعظم الأقاليم الشرقية ومع أن الخلافة لم تكن راضية عن توسع الصفاريـين لكنها لم تتخذ موقفا حاسمـا يحد مع أطماعهم لذا نجد الخلافة تقيم حكما مواليا لها فى المشرق وراء خراسان بأن جعلت بلاد ما وراء النهر التى كـانت خاضعة لولاة خراسـان الطاهريين، إقليما قائمـة بذاته وعدهت بولايته إلى نصر بن أحمد السامانى وبذلك جعلت الخلافة العباسية (الخليفة المعتمد ٢٥٦هـ) لنفسها قوة مواليه وراء الصفـار تستخدمها فى الوقت المناسب لضرب قوة الصفاريين ويذلك تأرجحت سـياسة الخلافة العباسية بين قـبول ولاية يعقوب وبين رفضـها مما أدى إلى وقوع خلافـات بين الطرفين لكم لم يدم الصـراع طويلا حتى مات يعقوب وآلت الأمور إلى أخيه عمرو ابن الليث وكان عمرو هذا يتميز بكفاءته وقدرته فى إدارة الدولة، والسـيطرة على كل الأمور وكانت سلطته تسـتند إلى قوة حربية لكنه كانت أقـل من أخيه حدة وقسوة إلا أنه عمل على امـتداد حدود دولته بالتوسع شـرقا لذا كان يشترى المماليك الصغار ويجرى على الـقواد الرواتب وقد ساعده ذلك على النصر لتوسع نفوذه إلى الشرق والشمال واجتياز نهر جيحون إلى بلاد مـا وراء النهـر عـام ٢٦١هـ بعـد أن كـانوا أول الأمـر نوابا عنهم من قـبل الطاهريين وبعـد وفاة الخليفـة المعتـمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) وتولى الخليـفة المعتضد بالله أبو العباس أحمد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) الخلافة جدد الخليفة توليته لعمرو بن الليث الصفارى.

لكن عمرو بن الليث الصفارى طلب من الخليفة المعتضد توليته على بلاد ما وراء النهر فأجابه الخليفة إلى هذا الطلب وعـزل إسماعيل بن نصر السامانى (٢٧٩ - ٢٩٥هـ / ٨٩٢ - ٩٠٧هـ) وكان إسماعيل بن نصـر السامانى قد بسط سلطانه على خوارزم وبلاد ما وراء النهـر عام ٢٨٠هـ - ٨٩٣/ ٨٩٤م. وذلك عقب وفاة أخيه نصر فعهد بحكومة سمـرقند إلى أحد ابناء نصر واتخذ من بخارى عاصمة له وبها تقبل من الخليفة المعتضد بالله براءة التـقليد والخلع المعتاد وكان إسماعيل يرى فى خضوعه للخليفة أمير المؤمنـين استجلاب لرضاء الله هنه وإن كان يعرف مدى ما لبلاد بغداد من سلـطان عليه كما أن الخليفة كان يدرك أن البـراءة والتقليد التى أذن فيها إسماعيل بإجراء وضرب باسمه لم تكن إلا مجرد تقليد محض فقد كانت

الخلافة تنوء تحت أعباء كثيرة وقد عاش خخلفاء بنى العباس الضعفاء هؤلاء فى رعب وفزع من تلك الدول الجديدة المستقلة فى شرق الدول حتى نجد الخليفة المعتضد يفوض إلى الأمير إسماعيل بن نصر شئون بلاد ما وراء النهر بلقب حامى الملة والدين والمدافع عن الخليفة ضد أعدائه ولكن الخليفة يكتب فى الوقت نفسه سرا إلى عمرو بن الليث الصفارى أمير خراسان وبلاد ما وراء النهر، ولم يكن إسماعيل السامانى ليأبه لشىء من هذا لكنه لم يعر عمرو الصفارى أدنى أنتباه فقد انطلق عقب ارتقائه العرش يتقرب إلى الله بغزو ديار الأتراك والصين التى تقع عند الشمال من أضيه وعلى مقرب من تركستان الشرقية فأنزل بالأتراك الهزيمة ثم عاد إلى بخارى لكنه وجد نفسه يدخل فى قتال مع عمرو بن الليث الصفارى والذى استنفد جهد سبع سنوات طوال لاسيما أن عمرو الصفارى كان لديه الإصرار على ضم بلاد ما وراء النهر وانتهز الخليفة هذه المناسبة لضرب قوة السامانيين النامية فى بلاد ما وراء بناء على كتاب الخليفة المعتضد لكن الأمير إسماعيل ابن أحمد السامانى رفض أن يسلمها إلى الأمير الصفارى همرو بن الليث ورد عليه يحثه على عدم التعرض لبلاده وعدم توسيع ملكة على حساب الأمارة السامانية لكن عمرو أصر على تحقيق سياسته الرامية إلى توسيع ملكة على حساب الإمارة السامانية ولم يقدر الصعاب التى تقف فى طريقة وتحول دون وخليفتها المعتضد وأخيه الموفق ورجالهما إنما يرمى بذلك إلى إضعاف قوة السامانيين حتى تمكن عمرو الصفارى هو ورجاله من مواصلة الجهود للتوسع فى بلاد ما وراء النهر واشتدت عزيمة عمرو وقوى من أطماعه فاستعد للحرب ضد إسماعيل أحمد السامانى وسار على رأس جيش كبير إلى بلاد ما وراء النهر واشتبك مع الأمير السامانى إسماعيل فى معارك ضارية استطاع فيها السامانيون أن يلحقوا بعمرو هزيمة حاسمة وأسروه وأرسلوا به إلى الخليفة المعتضد، فأختار عمرو الصفارى دارا لخلافة وبذلك انتهى خطر كبير كان يهدد سلطان الخلافة العباسية. وبعد أن أسر عمرو بن الليث الصفارى اضطرب أمر الصفاريين حيث ولى البلاد حفيدة طاهر بن محمد بن عمرو. وعمل الخليفة المعتضد على تأمين بلاد الخلافة العباسية الإسلامية فى هذا الجانب فاستعان بإسماعيل السامانى صاحب بلاد ما وراء النهر للقضاء على بقايا الصفارين فى إقليم سجستان.

وأخذت الخلافة ترسل جيوشها المتوالية حتى استطاعت القضاء على بقايا الصفارين عام ٢٨٩هـ / ٩١٠م وكان عمرها قصيرا لم يتجاوز خمسة وثلاثين عاما على الرغم من قوة جيشها وحسن تسليحها على الغم من سعة البلاد التى وقفت تحت أوليتهم، ولم يكتب للدولة طول العمر نظرا لأن الصفارين اتجهوا إلى التوسع على حساب الأقاليم الإسلامية ودار الخلافة وكذلك على حساب دولة السامانين التى كانت تقوم بمهمة الثغور وحماية الحدود فى المشرق مما أضعفها وقصر من عمرها وذلك من سوء طالعها وكانت الأحداث فى دولة بنى صفار قبل سقوطها قد ساعدت على هذه النهاية لاسيما أن قوة الروح المعنوية للجنود قد فقدت بعد فقدهم الزعيم القوى عمرو بن الليث الصفارى وأسرة وتفكك وحدة الصفاريين فكان هذا من أهم أسباب سقوط الدولة وانتهز السامنيون الفرصة وعملت الخلافة على الاستفادة من هذه الظروف المواتية وبهذا التحالف الثلاثى الخلافة العباسية والسامنيون وتفكك البيت الصفارى وتمزق كلمته زالت دولتهم فى نهاية عام ٢٨١هـ / ٨٩٤م بعد عامين من سقوط وأسر قائدهم وقتله فى بغداد وهكذا كانت هزيمة إسماعيل بن أحمد السامانى بالقضاء على البقية الباقية من نفوذ الصفارين وتضيف إلى ما سبق قوله أن تمرد كبار قادة الدولة الصفارية على سادتهم وما ترتب على ذلك من ضعف الدولة الصفارية وانهيارها، ولقد كان سقوطها سريعا، لأنها قامت على أساس عسكرى.

وهكذا فإن القضاء على قوة الصفارين فى جنوب وسط آسيا بداية لظهور قوة السامانيين كقوة وحيدة فريدة فى شرق الدولة الإسلامة لا ينازعهم منازع فى فرض السيادة على كل هذه الأنحاء لا سيما أنهم كانوا يحكمون أراضى صغيرة فى بلاد ما وراء النهر ولاة من قبل الطاهريين لكن بعد إسقاطهم الصفاريين عام ٢٨٩هـ / ٩٠١م فإن الأمور بدأت تأخذ بعد أخر مغايرا لكل الظروف والملابسات السابقة حيث كانت تعيش الدولة السامانية فى الظل باعتبار أنها كنت تخضع لقوة الظاهرين وتحكم باسمهم لا باسم الخلافة العباسية، لكن عندما استطاع إسماعيل بن أحمد السامانى أن يأسر عمرو بن الليث بن الصفارى ويرسل به مصفدا فى الأغلال إلى بغداد فإن ذلك كان هو العنوان الواضح القوى لظهور قوة السامانيين لاسيما أن الخليفة المعتضد بالله بوصفة أمير المؤمنين عند سماعه بالانتصار الباهر

على الصفارين كـتب إليه يأمره بأن يسير إليه عـمرو، لأنه هو وحده الذى له الحق فى أن يعاقب المذنب مع أنه هو نفسه الذى حرص عمرو على تلك الحرب.

وهنا نجد أن الأمير السامانى إسماعيل لم يجد أمامه إلا أن يستجيب لطلب، الخليفـة لأنه لم يستطيع أن يتجاهـل أمير المؤمنين، ونفذ إسـماعيل أوامر الخليـفة وعند وصول عمرو الصفارى إلى بغداد فـإن الخليفة العباسى بادر من فوره بإرسال البراءة إلى إسماعيل بولاية خراسان وكذلك حكم ما وراءالنهر حتى جيحون وقدم رسول الخليفـة ومعه الخلع الفاخـرة وتم ذلك فى احتفال عظيم بتـقليده أمور هذه البلاد التى تمتد شـرق العراق حتى حدود الصين وعـلى ذلك فإنه إذا كانت الدولة الصفارية قـد ظهرت فى شرق الدولة الإسلامة فى خـراسان وبعض مناطق أواسط آسيا على حـساب الدولة الطاهرية فإن السامـانيين بدورهم قد ظهروا كقـوة كبرى وفعاله ومؤثره فى أواسط آسـيا على حساب الصفارين ولقد كـان للسامانيين الدور الواضح فى تاريخ أواسط آسيا الذى يشمل الآن جمهوريات آسيا الإسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفـيتى عام١٩٨١م كقـوة إسلامية فعـالة بدأت تأخذ وضعهـا كقوة مؤثرة على الساحة الإسلامية فى العصر الحديث.

❊❊❊

الدولة السامانية

٢٦١ - ٣٨٩/٨٧٤-٩٩٩م

فى آسيا الوسطى أو التركستان أقام السامنيون دولة قوية فى آسيا الوسطى أو بلاد ما وراء النهر وخراسان، واستمرت مدة طويلة أكثر من قرن وربع، مما يدل على قوتهم، وهى من أطول الدويلات المستقلة عمرا.

نسب وأصل السامنيون: ينتسب السامنيون إلى «سامان» رأس الأسرة وهو نبيل فارسى، أنحدر من سلالة بهرام جوبين، إحدى قواد الفرس الشجعان وصاحب الانتصارات الكبرى ضد الروم، واختلف المؤرخون حول اسم ساما هذا فالنرشخى مؤرخ الدولة السامانية فى كتابه (تاريخ وبخارى) يرى أن «سامان» أطلق عليه هذا الاسم، لأنه بنى قرية وسماها سامان، ويذهب آخر (سعيد نغيسى) أن هذه الكلمة مركبة من كلمتين (سامان) و(خداه) وتغنى أميرا وحاكم (سامان خداه) أى أمير أو حاكم سامان، والرأى الأرجح أن سامان هذا اسما فارسيا يعنى الأمير أو الحاكم.

وعلى أية حال فإن سامان ينتسب إلى أسرة فارسية عريقة، واتفق على ذلك كثير من المؤرخين الفرس والعرب.

موطنهم:

وكما اختلف المؤرخين فى نسبهم، اختلفوا فى موطن السامانيين هل هم من بلخ الفارسية أم سمرقند التركية؟ أو بعبارة أخرى هل السامانيون ينتمون إلى الأصل الفارسى أم التركى؟.

وكما قلنا فهم ينتمون إلى الفرس، وأن حكموا بلاد الترك (بخارى - سمرقند وغيرها) ولو انتموا إلى الأتراك؟ فيكف نفهم تلك الحروب التى خاضها السامانيون ضد الأتراك والذين كانوا يغيرون على حدود دولتهم؟ وكيف نفسر أيضا حركة إحياء الشعر الفارسى فى بلاط السامانيين لو كانوا من سمرقند - إحدى بلاد الترك - بالإضافة إلى الإجماع على أنهم ينتمون إلى بلخ إحدى مدن الفرس.

اتصال سامان بالدولة الإسلامية:

اتصل سامان بالدولة الإسلامية فى عهد «هشام بن عبد الملك» فقد وفد على أسد بن عبد الله القسرى - وإلى خراسان - فأكرمه، وقهر أعدائه، فاعتنق (سامان) الإسلام على يديه، وسمى ابنه أسدا تبركا به، وكانت الاضطرابات السياسية وهجمات المغيرين المتكررة من الأتراك على خراسات وخصوصا «بلخ» هى سبب هروب «سامان» إلى أسد القسرى، وقدم سامان خدماته للدولة الأموية، وساهم فى محاربة أعداءها / كما دخل خدمة الدولة العباسية، ولعب دورا فى الثروة العباسية فى خراسان، حينما انضم إلى آبى مسلم الخراسانى.

كما خدم أسد بن سامان فى بلاط العباسيين أيام الرشيد، وكما أعتاد بنى العباس إكرام الفرس مثل البرامكة، وأسرة بنى سهل أكرموا «أسد بن سامان» وأولاده، فعندما آلت الخلافة إلى المأمون العباسى (١٩٨ - ٢١٨هـ ٨١٣ - ٨٣٣م) قربهم إليه. ووجه عنايته الشديدة إليهم وولاهم على إقليم ما وراء النهر «فعين نوح بن أسد واليا على سمرقند وظل واليا عليها حتى توفى سنة ٢٢٨هـ، ٨٤٣م وتوارث أولاده حكمه.

كما عين أحمد بن سامان على فرغانه والذى من صلبه جاء حكام الدولة السامانية إلى جانب بعض الشاش، كما كانت الشاش، وأشروسنه ليحى بن أسد وهراة لياس بن أسد حتى وفاته سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م، وتوارثها أولاده.

وكان أحمد بن أسد رجلا فاضلا، حسن السيرة، ظل حاكما على سمرقند حتى مات سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، وبعد وفاته تولى حكمهم سمرقند ابنه (نصر بن أحمد) الذى عينه المعتمد أميرا على كل بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م. لتقوم الدولة السامانية.

نشأة الدولة السامانية:

دخلت الأسرة السامانية فى طور جديد سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م، هيأتها لها الظروف السائدة فى هذه المنطقة النائية عن مراكز الخلافة العباسية؟ فما هذه الظروف؟ والعوامل التى مهدت قيامها؟ وكيف نشأت الدولة السامانية وسط هذه

الظروف؟ وهل كانت السامانية فى علاقتها بدولة الخلافة كالطاهرية أو الصفارية؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عنه فى الصفحات التالية:

العوامل التى مهدت لقيامها:

١ - تولية الطاهريون حكم خراسان: وهم فرس فأصبح أقليم خراسان وما وراء النهر منذ سنة ٢٠٥هـ / ٨٢٠م أكثر أجزاء الدولة الإسلامية حيوية ونشاطا، وأصبح السامانيون فى خدمة الطاهريين، مما هيأ لهم فرصة الاحتكاك بحكام خراسان.

٢ - ضعف الخلافة العباسية، وعدم محاولتها الدفاع عن حماتها الطاهريين، لأنها كانت تعانى الاضطرابات والفوضى، ووقوع خلفاءها تحت سيطرة العنصر التركى، وكثرة الثورات عليها كثورة الزنج والقرامطة.

٣ - قوة الصفاريين، ومحاربتهم الخلافة العباسية نفسها فى عهد الموفق، حينها جهز يعقوب ابن الليث الصفار جيشا لمحاربة الموفق، فى وقت ضعفت بل سقطت الدولة الطاهرية حامية الخلافة فى خراسان، فكان لابد من إنشاء قوة أخرى جديدة تحمى خراسان وما وراء النهر من خطر الصفارية والزيدية، فكان الآذن بقيام السامانية والدليل على ذلك أنها أسقطت الصفارية والزيدية فيما بعدز

٤ - هكذا قدر للسامانيين الذين أعدهم القدر ليلعبوا دورا هاما وخطيرا وتكون نهاية الصفاريين على أيديهم، ويسدوا فراغا سياسيا وعسكريا كبيرا خلفة الطاهريون، فقد ظلت إمارة سمرقند يتوارثها السامانيون إلى أن انقرضت الدولة الطاهرية سنة ٢٥٩هـ / ٨٢٧م، فأرسل الخليفة المعتمد أمرا بإسناد ولاية ما وراء النهر لنصر بن أحمد بن سامان، الذى أتخذ سمرقند عاصمته لملكة وتم ذلك سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م.

٥ - جاءت الدولة السامانية استجابة لتيار الحركة الاستقلالية والقومية الإيرانية، وإحياء القومية ورغم أنها قامت فى منطقة لا تدخل فى منطقة الثقافية أو الحضارة الإيرانية (بلال ما وراء النهر) ولكنها مدت نفوذها إلى إيران فشملت خراسان، وطبرستان والرى وسجستان، والدليل على ذلك، إحياءهم اللغة الفارسية الحديثة التى تجمع بين اللغتين العربية والفارسية.

٦ – حماية الثغر الشرقى للدولة الإسلامية من خطر الأتراك والصينين، وقد لعب السامانيون دورا كبيرا فى جهادهم ضد الكفار فى منطقة آسيا الوسطى، والحضارة الإسلامية فى تلك البلاد الوثنية، ودخل على أيديهم عدد كبير من الصينيين فى الإسلام، وجعلوا من بيئة بلاد ما وراء النهر بيئة صقل وتهذيب للعنصر التركى، وبدأ يتحول إلى عنصر مفيد للعالم الإسلامى.

تدعيم الدولة: أصبح نصر بن أحمد مستقلا بسمرقند، وخضع لسلطان الخلافة العباسية الروحى، وأصبح لا يتبع إلا الحكومة المركزية فى بغداد، بعد أن كان يتبع ولاة خراسان، ومنذ سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م، أخذت الدولة السامانية فى الظهور على يد نصر بن أحمد وأخذت تؤكد استقلالها، فبسط نصر نفوذه على بلاد ما وراء النهر بأسرها، وقد صادفته عدة مصاعب ومتاعب شأنه شأن غيره من مؤسسى الدول والحكومات وهى:

١ – بخارى: العاصمة الثانية لإقليم الصغد وأهم مدينة ف آسيا الوسطى بعد سمرقند والعاصمة الدينية لها إذا كانت تعانى الفوضى والقلاقل والمتاعب بسبب غزوات الخوارزمية لها وهى إمارة مجاورة لهم، ولكن أهل بخارى صدوهم، فعين «نصر بن أحمد » أخاه «إسماعيل بن أحمد» واليا عليها الذى قابله أهلها باحترام شديد ونثروا عليه الذهب والفضة كعادتهم.

٢ – الخطر الصفارى: حيث حاول يعقوب ابن الليث الصفار غزو بخارى طمعا فيها وأملا فى اتساع دولته ولكن نصر بن أحمد أرسل أخوه إسماعيل بن أحمد إلى بخارى ليضبط أمورها كما قلنا سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م.

٣ – خطر الأتراك الكفار المجاورين، وكانوا قوة كبيرة استطاع نصر بن أحمد التعامل معها بالحرب والسلم.

٤ – أطماع الإمبراطورية الصينية المجاورة فى التركستان الغربية لدولته ومحاولتهم استغلال حالة الضعف التى كانت عليها الحكومة، واضطراب الأمور فى بخارى لغزوها والاستيلاء على خيراتها، فقد كانت لأجل وأعظم بلاد ما وراء النهر للسيطرة على طريق الحرير العظيم – طريق التجارة العالمى – والذى كان يمر ببخارى وسمرقند وحتى بغداد.

٥ – عصيان بعض جنود الأتراك على الأمير نصر بن أحمد، فقد كان كل جيشه منهم، ولكنه استطاع أن يضمهم إليه.

٦ – الحرب الأهلية بين الأمير نصر وأخوه إسماعيل:

دخل إسماعيل بن أحمد بخارى، فقضى على الفوضى، وعلى عصابات اللصوص من الفلاحين المتذمرين وتفرغ للأخطار الخارجية المتمثلة فى يعقوب بن الليث الصفارى والخوارزمية الذين كانوا يهددون أمنها عبر جيحون، واستطاع أن يحشد جيشه ويشن هجوما عنيفا عليهم. انتصر فيه ورد الخطر الصفاريو الخوارزمى عنها، فاستقرت له الأمور فيها، كما تخلص أيضا من كبار الشخصيات فى بخارى الذين بدؤوا يشقون عصا الطاعة ولا يحترمونه وليست له هيبة عليهم، فتخلص منهم، بأن طلب منهم مغادرة بخارى إلى سمرقند لمقابلة أخيه نصر، وهم فى الطريق أرسل إلى أخيه باعتقالهم وأودعوا السجن، واستقر له وأخيه الأمر فى سمرقند وبخارى.

وبهذه السياسة الحازمة توطد سلطان الدولة السامانية فى بلاد ما وراء النهر.

الصراع على السلطة

تعرضت الدولة السامانية فى بدء حياتها إلا اختلاف حاد وصراع نشب بين الأخوين نصرو إسماعيل، وتطور النزاع إلى حرب دموية أريقت فيها الدماء، وذهبت فيها الأرواح، فلم تستمر العلاقات بينهما على ما كانت عليه من الود والصفاء، ذلك أن نصر فرض على أخيه إسماعيل وإلى بخارى من قبله – كل سنة خمسمائة آلف درهم من أموال بخارى، وكن إسماعيل لم يستطع دفع هذا المبلغ لحروبه الكثيرة التى خاضها ضد أعداء الدولة الناشئة فاستاء نصر من أخيه إسماعيل واعتقد أنه يسعى إلى الاستقلال ببخارى، فعمل على إخضاعه، فسار على رأس جيش كبير، واشتبك الأخوان سنة ٢٧٢هـ – ٨٨٥م فى حروب مستمرة انتهت بصلح بينهما بمقتضاها ولى إسماعيل خراج بخارى وعزل عن حكمها، وتحسنت العلاقات بينها فترة قليلة، ثم تدخل الوشاة والحاقدين وبطانة السوء بينهما، فأسدوا العلاقات بين الأخوين مرة آخرى، وتجدد القتال بينهما سنة

٢٧٥هـ - ٨٨٨م وهزم إسماعيل أخوة نصر، ووقع أسيرا فى يده، وترجل إسماعيل عن حصانه، وقبل نصر على جبينه وأمر جيشه بالابتعاد عن أخيه.

إسماعيل يحسن إلى أخيه نصر:

انتهت الحرب بانتصار إسماعيل كما قلنا، وأسر نصر ولكن إسماعيل أحسن إلى أخيه، واصطنع معه اللين والحكمة، فأرجعه إلى سمرقند معززا مكرما قبل أن يصلها أبناء الحادث فلا تتعرض بذلك سمعته فيما وراء النهر إلى شىء من المهانة، وبالغ فى إكرام أخيه، وقدم له الطاعة والولاء، بل سأله العفو والصفح وقال له: «أيها الأمير إنها إرادة الله التى شاءت أن أراك اليوم، وأنت فى الأسر» فرد عليه نصر بقوله: «بل هى أرادتك أنت، إذ خرجتك على سيدك، وأذنبت بذلك فى حق الله عز وجل»، لقد ظن نصر أن أخاه إسماعيل يسخر ويستهذئى به، ولكن إسماعيل كان يقصد شيئًا آخر، فقد قال له فى لحظة وداعه «.. إننى أحكم بالنيابة عنك هذه الديار».

وفاة نصر وانفراد إسماعيل بالحكم:

انتهى الصراع بين الأخوين بموت نصر سنة ٣٧٩هـ ٢٨٩م فتولى إسماعيل أمر الدولة السامانية وأقره الخليفة العباسى المعتضد على حكم بلاد ما وراء النهر، ولقد لعب إسماعيل بن أحمد دورا كبيرا فى بناء وإرساء قواعد الدولة السامانية التى كانت فى حاجة إلى شخصية قوية تجتاز بها الصعوبات والمحن التى كانت فى حاجة إلى شخصية قوية تجتاز بها الصعوبات والمحن التى واجهتها، وقد وجدت فى هذه الشخصية فى إسماعيل بن أحمد السامانى.

الدولة السامانية فى عهد إسماعيل بن أحمد (وعلاقتها الخارجية):

اجتازت الدولة السامانية أدق مراحل حياتها التى صادفتها فى بدء نشأتها من حرب أهلية وفتن داخلية، ويعتبر إسماعيل بن أحمد من حيث الشهرة والزعامة، أعظم حكام الدولة السامانية بلا منازع سواء أكان ذلك من الناحية السياسية أو الحربية أو الإدارية، ويطلق على عهده، أنه عهد اتساع الدولة السامانية وازدهارها، وتأكيد استقلالها.

ولد إسماعيل بن أحمد فر فرغانه أثناء ولاية واده أحمد بن أسد عليها، وكان واليا على بخارى من قبل أخيه نصر. وبعد وفاة نصر أقره المعتضد، كما رأينا على بلاد ما وراء النهر.

وقد أصدر الخليفة مرسوما يقره فى منصبه فى المحرم سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣هـ وأصبحت بلاد ما وراء النهر كلها تابعة له بعد أن كان واليا على بخارى فقط، وبانتزاع إسماعيل هذا الحق من الخليفة تأكد استقلال السامانيين..

وقد اتصف بالعدل وحسن السيرة فى رعيته، وكان يحب أهل العلم ويكرمهم لذلك دامت دولته له ولأولاده من بعده، وطالت أيامهم، وكان متواضعا لا يحب التفاخر بالإحسان والأنساب ويهتم بالأعمال لا بالأقوال.

ولقد امتازت الدولة السامانية فى عهده بالنشاط الحربى، فخاضت معارك حربية فى جبهات ثلاث وهى ما يشمل علاقته الخارجية إلى جانب علاقته بالخلافة العباسية:

أ - مع الدولة الصفارية. ب - مع الزيدية فى طبرستان.

جـ - جهاده ضد الأتراك. د - علاقته مع الخلافة العباسية.

أ - مع الدولة الصفارية:

كان الخليفة العباسى المعتضد الذى أقر حكم إسماعيل على بلاد ما وراء النهر يريد إحياء الخلافة العباسية ومدها مرة أخرى، فنظر بعين الشك والريبة إلى الدولة السامانية الناشئة التى أخذت تزداد قوة ونفوذا فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية، فاتخذ الخليفة المعتضد سياسة ذات وجهين، فبينما أعطى إسماعيل السامانى حكم بلاد ما وراء النهر تآمر عليه سرا، وأرسل إلى عمرو بن الليث الصفار، يحرضه على التخلص من إسماعيل السامانى، ولعل الخليفة العباسى كان يريد ضرب خصمين قويين ببعضهما بقصد إضعافها أو شغلهما عن الزحف إلى دولته، ومهما تكن النتائج فإن الخليفة العباسى كان هو المستفيد الوحيد من ورائها لأن الحرب بين الخصمين تضعفهما أو تضعف واحد منهما على الأقل، وقد استمرت الحروب بين الأمير الصفارى والأمير السامانى، بعد ما طلب عمرو بن الليث من المعتضد إعطاءه بلاد ما وراء النهر، فأعطاها له، وعزل إسماعيل عنها،

ليضعف قـوة السامانيين، فقـامت الحرب بينهما، ولم يكن إسـماعيل راغبا فـيها لعلمه ما تخلفه الحروب من دمـار، فأرسل إلى عمرو بن الليث يطلب منه الاقتناع بما تحت يده من أملاك فرفض، فـخرج من بخارى يقود عشرين ألف مـقاتل وعبر جيحون إلى الجـانب الغبى، وشن هجماته على جيش الصفار من جـميع الجهات وانتصر انتصاراً سـاحقًا على جيش الصفار وأسر عدد كبـيرا منه، وأسر عمرو بن الليث نفسه، حـينما وقف أهل نيسابور العـاصمة الصفاريـة وأهل بلخ مع الأمير إسماعيل ووثبوا على عمرو وقيدوه وحـملوه إلى إسماعيل أسيرا وجئ بعمرو إلى إسمـاعيل، فأمر بـإكرامه، فأنزله فى خـيمتـه وعن أخاه أبا يوسف حارسـا عليه وعامله معاملة حسنة، وتعهد بحفظ حياته، وبعث به إلى سمرقند.

وارتفعت مكانة الأمير السامانى بعد هزيمته لعمرو بن الليث، فضم خراسان إلى ملكه، وفوضه الخليفة المعتضد حكمها، وبدل سياسته معه فمدحه، وذم عمرو الصفـارى، وقدم رسول الخليفـة ومعه الخلع الفاخـرة إلى إسماعيل السـامانى فى بخارى، فأكرم إسماعيل وقادته، ثم ضم طبرستان إلى دولته، ثم الرى، ثم أرسل له الخليفة الـعباسى رسالة يطلب فيـها إرسال عمـرو بن الليث، فخير إسـماعيل عمرو الصفارى بين المقام عنده أو الذهاب إلى الخليفة، فأختار المقام بجوار الخلافة وطولب من إسماعيل أن يحسن معاملة أولاده ووصل بغداد سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م، حيث اعتقل وبقى فى الأسر إلى آخر عهد المعتضد.

وعهد المعتضـد إلى إسماعيل السامانى، بالقضاء على بقـايا الصفاريين حتى أسقط دولتهم سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١، ومن هنا أعجب المعتضـد بإسماعيل السامانى، وبعث له بالخلع وولاه ما كان تحت يده.

أ – مع الدولة الزيدية فى طبرستان مع العلويين والديلم:

ب – لم تكد تنتـهى الحـرب مع الدولة الصـفـارية على الجـبـهة الغـربيـة للسامانيين، حتى قامت الحرب فى الجبهة الشمالية مع الزيدية بطبرستان، والزيدية ينتسبون إلى الحسن بن زيد، الذى اسـتولى على طبرستان سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م من الطاهرين وهو علوى ينتـمى إلى البـيت، واتخذ من انـتسـابه هذا سند له، وظل حاكما عليها حتى سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م إلى أن تولى أخوه (محمد بن زيد) وكانت

هذه الدولة من الدويلات الشيعية التى قامت فى البلاد المشرق معادية للخلافة العباسية.

وعندما دخل محمد بن زيد فى حرب مع السامانيين حفر قبره بيده، فقد كانت السامانية أقوى وفى وضع أفضل خاصة بعد أن انتصرت على الصفاريين، ووثقت علاقتها بالخلافة العباسية.

فعندما هزم (عمرو بن الليث) على يد الأمير إسماعيل، تجاوز (محمد بن زيد) الحد، وحاول ضم جرجان ظانا أن إسماعيل بن أحمد لن ينازعه عليها، فطلب منه إسماعيل الرجوع عن الفكرة، ولم يستجيب لنداء إسماعيل السامانى، الذى جهز جيشا لمحاربته، والتقوا على باب جرجان، وقامت معركة رهيبة انتصر فيها القائد السامانى (محمد بن هارون) وأصيب محمد بن زيد بإصابات خطيرة وأسر ابنه زيد، وغنم ما فى معسكرة، ومات بعد أيام، فدفن على باب جرجان، وحمل ابنه زيد إلى إسماعيل السامانى فأكرمه وأغدق عليه، وأنزله فى بخارى وتوجه إلى طبرستان وأستولى عليها، وضمت إلى أملاك الدولة السامانية، وسقطت الزيدية.

وبذلك ضم آل سامان إلى أنفسهم حكم المشرق كله وتلقوا بذلك تراث الطاهرين وتحالفوا مع الديلم (الفرس) بالأموال وحرمت الزيدية منهم.

إلى أن استطاع أحد دعاة العلويين وهو الحسن الأطروش سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م، أن يجمع حوله الديلم مرة أخرى، ويهزم السامانيين، ويسترد طبرستان ويعيدها سميتها الأولى، وظلت الإمامة فى أولاده إلى أن انتهت سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م وتحولت طبرستان إلى خليفة المسلمين السنى فى بغداد.

ج - جهادهم المقدس ضد الأتراك:

بذل أمراء الدولة السامانية جهودا كبيرة فى سبيل نشر الإسلام، والدعوة إليه فى ربوع البلاد التى تخضع لسيطرتهم، فكانوا يشنون حروبا كثيرة ضد الأتراك الشرقيين الذين لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام، وقد اتخذت هذه الحروب سمة دينية ولا سيما فى عهد الأمير إسماعيل السامانى، الذى هدى الله على يديه الكثير من الديلم والأتراك، ومن أثم أحبهم الناس والتفوا حولهم.

ففى سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م جهز إسماعيل بن أحمد جيشا سار به إلى بلدة (طراز) التركية وكان أهلها من الأتراك مازالوا على الكفر، فرغب فى نشر الإسلام فيها، ولاقى مشقه كبيرة فى هذه الحرب التى شنها على أمير «طراز» ولكنه استسلم للأمير السامانى، وأسلم فحول إسماعيل السامانى كنيستها إلى مسجد، وقرأ الخطبة باسم أمير المؤمنين المعتضد بالله ثم عاد إلى بخارى بغنائم كثيرة.

وحينما شن الأتراك هجوما على الدولة السامانية سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٣م، لاسترداد المدن التى أستولى عليها السامنيون، استطاع الأمير إسماعيل صدهم وهزيمتهم وأفتتح العديد من مدنهم ونشر فيها الإسلام، وأقرهم الخليفة العباسى عليها.

د – علاقة الدولة السامانية بالدولة العباسية:

رأينا كيف وطد السامانيون علاقتهم ببنى العباس، ودخلوا فى خدمتهم فى عهد المأمون، فولاهم الولايات فى بلاد ما وراء النهر. واستمرت علاقتهم بالخلافة حسنة طوال العصر الأول، واستعان بهم الخلفاء، كما استعانوا بالطاهريين من قبل، وعندما حاول المعتضد ضربهم بالصفاريين فشلت محاولته.

وفى عهد الأمير إسماعيل ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة فزالت الدولة الصفارية بعد أن عجزت جيوش الخلافة فى القضاء عليها، وقدمت بهذا خدمة كبرى للدولة العباسية التى كانت تعانى الضعف والانحلال والتدهور.

كما تكن إسماعيل أيضا من فتح طبرستان وإزالة الزيدية منها وقتل (محمد ابن زيد) الذى نازع السامنيون ضد الحركات السياسية والمذهبية التى كانت تضر بمصالحهم ومصالح سيادتهم الشرعية المتمثلة فى الخلافة العباسية.

ولم تكتف جيوش السامانيين بطرد العلويين من طبرستان، بل جعلتها تحت السلطة الشرعية للخلافة العباسية، وجعلت الخطبة فيها باسم الخلافة، لذا منهم خلفاء بنى العباس الامتيازات التى حرمت على غيرهم، فجعلوهم حكاما على هذه المناطق التى كانت على وشك الانهيار.

ورغم أن أنهم دفعوا ضريبة للخلافة والحكومة المركزية فى بغداد، ألا أنه لم

يقم دليل على دفعهـا بانتظام، فقد كان من صالح الخلافـة أن تعطى أقليم خرسان وما وراء النهر لحاكم يعترف لهم بالولاء خوفا من ضياعها.

وقد سمح خلفاء بنى العباس للسامانيـين بسلك عمله ذهبية باسمهم بجانب اسم الخليفة، وبهذا تمتع السامانيون بأمور وهى: حفرا أسمائهم على العملة، وذكر أسمائهم على المنابر بجانب اسم الخليفة، وتخصيص كل دخل البلاد لهم.

وقد تمتع السامانيوم باستقلال كبير عن الحكومة المركزية فى بغداد فيما يخص الإدارة الداخلية، فهم الذين كانوا يولون ولاة أقـاليم، أو يعزلوهم عن مناصبهم، كما كانوا يقمعون الثورات أو الهجمات التى كانت توجه إليهم.

وقد تمتع السـامانيون باسـتقلال كبـير عن الحكومة المركـزية فى بغداد فيـما يخص الإدارة الداخليـة، فهـم الذين كانوا يولون ولاة أقـاليم، أو يعـزلوهم عن مناصبهم، كما كانوا يقمعون الثورات أو الهجمات التى كانت توجه إليهم.

وقد سـارت العلاقات بيـنهم على المودة، حتى أن الخلفـاء كانوا يعتـمدون عليهم فى إقـرار سلطانهم فى بلاد المشرق مثلما حـدث مع إسماعيل وابـنه أحمد الذى خلفه فى الحكم.

وهناك سـببـا آخر فى تحـسن عـلاقتـهم بالخلافـة، وهو أنهم لم يتـجهـوا بأطماعهم إلى البلاد الداخليـة وأملاك الخلافة العباسيـة، وإنما اتجهوا بنشاطهم إلى المجال الخـارجى، ونشر الإسلام فى الثـغر التركى فى أواسط آسـيا وسدوا فـراغا أحدثه انتـهاء الطاهريـين، وكانت كل قوتهـم مركزة فى التـركسـتان شـرقى نهر جيحـون، وفى أواسط آسيا ولذلك تركـهم العباسيـين، فاستطاعوا نـشر الإسلام والحضارة الإسلامية فى تلك البـلاد الوثنية، فدخل على أيديهم الكثير من الأتراك فى الإسلام.

وأقاموا مـراكز ثقافيـة هامة، كانت عامـلا هاما فى صبغ الأتراك بالصـبغة الإسلاميـة، وجعلوا من التركـستان بيئـية مؤثرة فى الترك، فـخفف خطرهم على العالم الإسلامى، بل هياتهم القيام بدور فعال لصالح العالم الإسلامى فى الداخل والخارج، كمـا يضاف إلى ذلك ضعف الخلافة الـعباسية نفـسها واحتيـاجاتها لمن يدافع عنها ويحفظ لها حدودها الشرقية.

وفاة الأمير إسماعيل وبداية سقوط الدولة:

لم تطل ولاية إسماعيل، فقد راح ضحية مؤامرة بعد حكم دام ست سنوات فقط، كانت مليئة بالانتصارات والعمران والعدل، ويعتبر المؤسس الحقيقى للدولة السامانية، وخلفه ابنه نصر الذى كان فى الثامنة من عمره، فأستصغره الناس واستضعفوه، وتنافس أمراء البيت السامانى على العرش وقامت ضده الكثير من الثورات والمؤامرات، فاستقل عمه (إسحاق بن أحمد) بسمرقند وبايعه أهلها، وخرج ابنه (أبو صالح إسحاق) فى نيسابور واستولى عليها وعلى بعض مدن خراسان، ولكن الأمير الصغير لم يترك لعمه، وابن عمه الفرصة، فتقضى على ثورتهما، وأعاد البلاد التى اغتصابها إلى حوزته.

كما شن حربا ضد العلويين فى طبرستان وهزمهم سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م، واستعاذ نفوذ والده عليها وعلى بلاد ما وراء الهر وخراسان وفارس وطبرستان وكرمان وجرجان والعراق، وذاع صيته بفضل هذه الانتصارات، حتى أن الخليفة العباسى استنجد به، واعتمد عليه فى ضرب الخارجين عليه.

الأمير ونوح بن نصر: توفى نصر بن إسماعيل سنة ٣٣١هـ / ٩٤٧م، فضعفت الدولة السامانية مرة أخرى، وطمع الأمراء فها وواجه ابنه نوح بن نصر مصاعب كثيرة خاصة فى بخارى، الذى استقل بها أبو إسحاق بن أحمد ولكنه قضى على ثورته.

ومن أخطر الصعوبات التى واجهته:

غزو ركن الدولة البويهى لبلاد الرى، واستيلائه عليها، لكن قائدهم (أبو على)، استطاع استردادها من البويهيين، ولكن فجأة انقلب عليهم، واستقل بخراسان، وأرسل إليه الخليفة، فلم يعد يتجاوز بلاد ما وراء النهر.

الأمير عبد الملك بن نوح:

توفى الأمير نوح سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م، وتولى ابنه عبد الملك الذى كان فى العاشرة من عمره فنجح أمراء الولايات فى الاستقلال بولاياتهم، فلم يقم يعمل يعيد وحدة الدولة، وحافظ عليها، وتوفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م، فخلفه أخوه منصور بن نوح، فأخذت الدولة فى الضعف بسبب:

١) خروج بعض القواد عليه.

٢) ازداد نفوذ البويهين الذى امتلكوا ما يقرب من نصف ابران.

٣) كما استولى خلفاء (شكمير بن زياد مؤسس) الدولة الزيادية على حساب السامانية التى أخذت فى الضعف والانحلال.

٤) إلى جانب ازدياد قوة الغزنويين الأتراك، إلى جانب اعتماد على الجنس التركى فى جيوشهم، وتولى الأتراك مناصب عالية فى الإدارة والجيش، وأصبحوا خطرا على الدولة.

٥) صغر بعض الأمراء من بنى سامان عرض الدولة، لتدخل النساء فى شئون الحكم، الأمر الذى شجع القواد وأصحاب الأطماع على الاستئثار بالسلطة.

٦) تعرضت الدولة لضغط من الديلم والعلويين.

٧) ومن الشرق تعرضت لضغط خانات الأتراك الذين دخلوا فى الإسلام على أيدى السامانيين، ثم بدوا يتطلعون إلى الاستقلال، والحلول محلهم.

٨) كما إن محمود الغزونى مؤسس الدولة الغزنوية وحاكم المنطقة الجنوبية الغربية، قد تطلع إلى الحلول محلهم، بعد اضطراب أمور السامانيين، وحينما أحس محمود الغزنوى بضعف الدولة السامانية، طمع فى سلطانها وارتمت السامانية فى أحضان الدولة الغزنونية الناشئة لتنقسم أملاكها بين قوتين:

- الغزنوية التى اتخذت من نيسابور عاصمة ومن الهند ثغرا لجهادها.
- قوة الخانات الأتراك الذين تولوا أمر الثغر الشرقى من بلاد ما وراء النهر.

وبذلك انقرضت الدولة السامانية التى ظلت تحكم آسيا الوسطى قرابة قرن وثلث، بعد أن أدت دورها فى الحياة الإسلامية سواء من الناحية السياسية أو الحضارية.

* الأوضاع الإدارية.
* الأوضاع الاقتصادية (الزراعية، الصناعة، التجارة، النظام المالى).
* الحركة الأدبية: أحيا الشعر الفارسى والغربى، العلوم، الفنون.
* الحياة الاجتماعية.

أولا: الأوضاع الإدارية

أقاليم الدولة السامانية

اتسعت الدولة السامانية اتسعا كبيرا، فشملت عدة أقاليم أهمها: خراسان، وما وراء النهر، طبرستان، وسجستان، وكرمان، وجرجان، وانقسمت خراسان إلى عدة أقاليم نيسابور ومرو، وهراه، وبلخ، وهذا تقسيم لامركزى مال إليه السامانيون حتى يسهل لهم حكم هذه البلاد الواسعة، وحتى لا تنعقد الأمور. كما قسموا بلاد ما وراء النهر إلى أقاليم الصغد، ويشمل سمرقند وبخارى التى أتخذها السامنيون عاصمة لهم. لما تمتعت به من مزايا عديدة.

وإقليم خوارزم وأهمها مدنه الجرجانية، وكاث، وهى مدينة مشهورة على شاطئ نهر جيحون، وإقليم أشروسنه والشاش وفرغانه. وعينوا على كل إقليم وال تابع لهم، وقسموا الولايات والأقاليم الواسعة إلى ولايات حتى يسهل عليهم التحكم فيها والسيطرة عليها.

اتخاذ حاضرة: حكم بنو سامان من سمرقند فى البداية، ثم تحولوا إلى بخارى، واتخذوها حاضرة لدولتهم، لأنها من أقرب مدن ما وراء النهر إلى خراسان، وهى مدينة متشابكة الأشجار، ومحصنة بالقلاع، وأرضها سهلة ليس بها جبال، وأهلها أهل علم، وبها زراعات وفواكه كثيرة، وجوها ملائم، فلا هو حار ولا هو رطب، وقد أدركها الغزو المغولى فدمرها سنة ٦١٦هـ - ٩١٩م، ثم تم بناءها من جديد.

اتخاذ الوزراء: اتخذ بنو سامان وزرائهم، من أهل العلم والدارية والخبرة، وكان وزيرهم وزير تنفيذ لا تفويض.

ألقابهم: لقبوا أنفسهم بلقب (الملوك). ولقبوا ولاتهم بلقب الأمراء والولاة.

توريث الحكم: وقع بنو سامان، كما وقع غيرهم فى مشكلة ولاية العهد، وتوريث الحكيم للأبناء، مما أدى إلى تولية ملوك صغار السن، فأدى إلى الاضطراب والفوضى السياسية التى عمت البلاد، وسهلت للغزنويين خانات الترك

إسقاط هذه الدولة، ونظرا لاتساع الدولة، عينوا ما يشبه نائب رئيس الدولة، فكانوا يقيمون فى بخارى، على حين يقيم قائد جيوشهم فى نيسابور.

ولاة الأقاليم: ولى بنوسامان ولاة من أسرتهم، وممن وثقوا فيهم على أقاليم الدولة الواسعة، ووضعوا شروطا لمحاسبة هؤلاء الولاة، حتى لا يخرج الوالى على الملك السامانى منها: قصر مدة حكمه، ومراقبته عن طريق عامل البريد، ومحاسبته إذا زاد ماله مما أدى إلى اتصافهم بالعدل.

دواوين الحكم: أتخذ بنو سامان الدواوين، وكان أشهرها ديوان الخراج، الذى تولى تولوه بأنفسهم نظرا، لثراء البلاد التى سيطروا عليها، وديوان الرسائل التى كانت تخرج وتدخل إليه الرسائل السامانية ورسائل الخلافة ورسائلهم إلى ولاتهم على الولايات، وديوان المحاسبة لمحاسبة الولاة وعمال الدولة من الشرطة والبريد وعامل الخراج وغيرهم، وديوان الجند، حيث كان جيشهم كبيرا ومتعدد الأجناس، فكان لابد من ديوان لضبطه.

الأوضاع الاقتصادية:

(الزراعة - الصناعة - التجارة - النظام المالى)

أدى اتساع رقعة الدولة السامانية إلى ازدياد خيرتها الزراعية والتجارية والصناعية، فكانت يصدر من نيسابور ثياب القطن والحرير إلى سائر البلدان، واشتهرت خراسان بزراعة الفواكه ولقطن والأرز وغيرها.

ولقد اهتم بنو سامان بالزراعة، فمهدوا الأرض واهتموا بها وألغوا الضرائب، فتمتعت دولتهم بمركز اقتصادى هيأ للسكان حياة كريمة، فخراسان مثلا: أنظف خبرا وأطيب فاكهة، وبخارى مثلا: أنزه بلاد ما وراء النهر، فلو صعدت قلعتها، فلم يقع بصرك من جميع النواحى إلا على خضرة متصلة خضرتها خضرة السماء فكأن السماء بها خضراء لكثرة زراعتها وبساتينها وكان يصدر منها بطيخ فائق الطعم، والبسط والمصليات، وأشهر ما اشتهرت سمرقند (الكاغد) (الورق) والديباج وقدور النحاس والفضة، والبندق والجوز، وأهلها وأهل خوارزم أهل صناعة كالحدادة والنجارة، فكان يبالغون فى التدقيق فى صناعتهم، ونساؤها يعملون بالإبرة صناعات كالخياطة والتطريز وغيرها.

وكان موقع هذه البلاد على طريق الحرير العظيم الممتد منها إلى الصين حتى بغداد والذى يعتبر أشهر طرق التجارة العالمية فى العصور الوسطى، قد أدى إلى ثراءها التجارى والصناعى، فكان يصدر من خوارزم مثلا القطن والصوف والجبن واللبن والفراء الغالى السعر والبسط والتحف والديباج المنسوج من الحرير والقطن، وكانت تنتح فها السفن من جذوع الأشجار وتتخذ للملاحة فى الأنهار الكبيرة، ويصدر من فرغانه الذهب والفضة والزئبق والحديد والنحاس، والنفط والزيت والفحم الحجرى للوقود، ويصدر من بساتينها، الأعناب والتفاح والجوز ومن الرياحين الورد والبنفسج. ومن الشاش: الثياب الرقيقة والسيوف وآلات النحاس، والرقيق والمصليات والأرز والكتان والقطن، «مما جعلها قبله لكل قاصد وطامع».

النظام المالى: رغم اتساع أقاليم الدولة السامانية، إلا أنهم ضبطوا هذه الدولة وأستتب الآمن والنظام فيها، بفضل سياستهم المالية الناجحة، فلم يرهقوا الشعب بالضرائب الفادحة، وخرجت رواتب الجيش والموظفين وعمال الأقاليم بانتظام، لزيادة أموالهم وعمران بلادهم.

ومن أجل هذا العدل فى توزيع الأموال على رجال الجيش بالذات، أستتب لهم الآمن، كما وزعوا رواتب القضاة والجباة والولاة، وصاحب البريد، ووالى الصلاة، وعلى صاحب كل ولاية جمع خراجه وإرساله دون نقص أو جبابة بظلم.

وبفضل هذا التنظيم المالى كانت الدولة السامانية ركن الإسلام ومستقر العلم، وكان جيشها من أقوى الجيوش، كما تمتعت بالاستقرار الاقتصادى، ولم تتعرض للأزمات الاقتصادية كما وصفها المقدسى التى زارها.

ضرب العملة: ضرب السامانيون عملة لهم، ووضعوا عليها اسم الخليفة العباسى بجوار اسمهم، مما يؤكد على استقلالهم بدولتهم.

رواتب عمالهم: عين السامانيون عامل وكاتب لهم، وكاتب عرف «بالبندار» بالفارسية يعنى عامل الخراج، وصاحب جند (قائد الجيش) وصاحب بريد، ومتول للضياع الأميرية وكلها مناصب إدارية لهم رواتب من بيت مال الدولة التى كانت مصادر الضياع الأميرية متعددة من دخلها وهى الخراج، الزكاة، الصدقات، الضرائب الفئ، الغنيمة، وكانت الأموال تصرف فى:

* رواتب للجند والقضاء والعمال والموظفين.

* بناء المدارس، حيث أصبحت بلادهم قبلة للعلم والعلماء والصرف منها عليهم.

* بناء البيمارستانات للعلاج.

تمهيد وتأمين طرق التجارة، مما أدى إلى ازدهار الحياة الاقتصادية التى أثرت فى كل مرافق الدولة، وأسهمت بنصيب كبير فى النهضة الفكرية، والأدبية، والفنية، كما ساعد على هذه النهضة التقدم الصناعى والتجارى، حيث بلغت التجارة والصناعة درجة كبيرة من التقدم، وعبرت تجارة سمرقند وبخارى إلى الصين والعراق والهند، وبحر الخزر غربا، ودول شمال أوروبا، فقد عثر على نقودهم فى روسيا.

الحركة الأدبية:

من الواضح أن البلاد التى تزوج فيها الصناعة والزراعة والتجارة ويستقر فيها العلم والمعرفة، ولهذا أصبحت بخارى وسمرقند بفضل تشجيع السامانيين مركزا من أهم مراكز الثقافة والإشعاع العلمى فى الدولة الإسلامية.

وجذبت عاصمتهم بخارى كثيرا من الشعراء والعلماء، فأصبحت الدولة السامانية من أعظم الدول الإسلامية نظاما، وأدبا وعلما، ولا غرو فقد نشأت فى عهد وازدهار الحضارة العربية الإسلامية فى القرن الرابع والخامس الهجرى.

وقد شجع السامانيون الحركة الأدبية، كما كانت قصورهم مجتمعا للشعراء وقرص كثير منهم الشعر باللغة العربية أو الفارسية وكانت بخارى مثابة الجد، وكعبة الملك، ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر والشعر، وأصبحت مركزا يشع منه المعرفة، ويزخر بالأدباء ورجال الفكر والفن.

وكما كان السامانيون من أصل فارسى فقد شجعوا الشعر واللغة الفارسية، لذلك راجت اللغة الفارسية إلى جانب اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وظهر فيها كثير من الشعراء الذين نظموا بالفارسية بجانب العربية وراج النظم والنثر باللغتين معا. وكان الروكى والدقيقى من خيرة شعراءهم الذين نظموا الشعر بالفارسية.

وأبرز شعراء هذه الدولة هو الفردوسى، صاحب الملحمة التعليمية الشهيرة، (الشاهنامة) ويمكن القول: بأن عهدهم أول العهود التى راقت فيها الآداب الفارسية والعربية معا.

العلوم والفنون:

ظهر فى بلاط السامانيين كثير من العلماء الذين خدموا الإنسانية فى ميدان العلم والمعرفة خدمة كبرى فى شتى العلوم، بفضل تشجيع الدولة لهم.

ففى الطب: نبغ أبو بكر الرازى (ت ٣١١هـ / ٩٢٣م) أشتهر أطباء عصره، ويعرف عند الأوربيين للان باسم (phazee) الى ألف فى الطب كتبا كثيرا منها كتاب (الحاوى) من ثلاثين مجلد، وهو عمدة الأطباء وكتاب (الأعصاب) الذى ترجم إلى اللغات الأوربية كلها.

ومن كتبه أيضا (الجدرى والحصبة) (والحصى فى الكلى والمثانة) وكتاب (النقرش)، وقد أشتهر بالكرم، والعطف على المرضى، وكان يصرف عليهم من ماله الخاص.

وفى الفلسفة: كان أبو سهل البلخى، وابن سينا الذى مثل الحركة الفلسفية الإسلامية إلى جانب علومه فى الطب والفقه. وألف فى المنطق والفلسفة- وكان متأثرا بالفارابى أستاذه» كما بحث فى الإلهيات» وتكلم عن الطبيعة، وقد بلغ فى الطب نبوغا أهله إلى إن يستدعى لعلاج الأمير (نوح بن نصر السامانى) (٣٣١ - ٣٤٣هـ / ٩٤٢ - ٩٥٤م) فى مرضه الأخير، فأحضره وعالجه حتى برئ، وأتصل به وقربه منه، ودخل إلى دار كتبه، فقرأ ما فيها، وقد وصفها ابن سينا بأنها حجرات مليئة بالكتب فى شتى صفوف المعرفة، وصار كتابه (القانون) فى الطب المرجع الأساسى فى علم الطب فى أوروبا خلال العصور الوسطى حتى عرف فى الغرب الأوروبى باسم (أفيلسينا) واستخدمته أوربا حتى وقت قريب.

وفى مجال الفقه: ظهر العالم الجليل السمرقندى الذى كان إمام كبيرا الذى طوف فى البلاد لتلقى العلم، وولى قضاء سمرقند فى عهد السامانيين، وحتى الآن يستفاد من كتبه فى الفقه والحديث وقد مات سنة٢٥٤هـ/ ٨٦٨م.

كما برز أيضا فى الفقه النيسابورى، الذى كان إماما مجتهدا (ت٣١٦هـ/ ٩٢٨م) وأبو بكر الحسين البيهقى الحافظ الشافعى راوى الأحاديث وصاحب الصحيح، إلى جانب الآلاف غيرهم، مما أنجبتهم بلاد غير عربية عملت على خدمة الإسلام والمسلمين.

وفى مجال الجغرافيا: أتاح نظام البريد، الذى وضعه بنوا أمية ثم تابعه بنوا العباس بالتجديد والتوسع، أتاح شبكة من المواصلات أفاد منها أصحاب الوظائف فى الدولة، وخاصة عمال الخراج، كما هيأ نفس الفرصة للرحالة الذين طافوا جميع البلاد الإسلامية شرقها وجنوبها، وشمالها وغربها بسهولة ويسر، فكتبوا عن البلاد، وشجعهم بنوا سامان، ففى بلاط إسماعيل السامانى برز الجيهانى والمقدسى والمسعودى وغيرهم من الرحالة المسلمون.

وفى مجال الفنون: اهتم السامانيون بالفن والعمارة، فازدهر فن الخزف والسجاد، وكان بلاطهم موطن التحف والبسط فى الشاش(طشقند الحالية) وكذلك الحرير الذى اشتهرت بصناعته بخارى، كما اهتموا بالعمارة وخلفوا أجمل المبانى، سواء كانت قصورهم أو مدارسهم العلمية.

الحياة الاجتماعية:

اتصف السامانيون فى حكمهم لدولتهم الفسيحة بالعدل والإصلاح وتشجيع العلم والعلماء، فأضافوا لمجدهم السياسى والحربى، مجدا حضاريا ونهضة علمية وفكرية. ولم يلاحظ وجود المجتمع الطبقى فى بلاطهم ودولتهم، لسياسة العدل بين رعيتهم، فقد جلسوا بأنفسهم للمظالم، وراقبوا عمالهم، وعزلوا من يظلم رعيته، كما حرصوا على الصلاة.

عناصر السكان: نظرا لاتساع الدولة السامانية، فقد تعدد عناصر السكان فيها ما بين

- الفرس: فى خراسان وكانوا حكام دولة.
- الترك: فى بلاد ما وراء النهر وعدة الجيش السامانى.
- العرب: من القبائل العربية المهاجرة مع الفتح والتى استقرت فى خراسان وما وراء النهر.

- الصينيون: المهاجرين لحدودهم والذين غالبا، ما دخلوا أراضى السامانيون تجاريا

- الأوربيون وخاصة الصقالبة: كالرقيق

- يهود الخزر، ونصارى أوروبا: ولقد عاش أهل الذمة من يهود ونصارى فى أمان واستقرار كفل لهم دستور الدولة الإسلامية وسياسة العدل السامانية.

المواكب والاحتفالات: نظرا لثراء الدولة، وتمسكها بالدين الإسلامى فقد حرص أمراء السامانية على إقامة الاحتفالات الدينية كالاحتفال بعيد الفطر والأضحى وليلة الرؤية، كما حرصوا على الخروج فى مواكب فى احتفالات النصر، وتعيين الوزراء والأمراء والولاة أو إرسال الإرسالية السنوية للخلافة العباسية.

المرأة: تمتعت المرأة المسلمة فى ظل الدولة السامانية بقسط كبير من الحرية التى كفلها لها الإسلام فى الميراث والتعليم والعلم، فلقد أنصف بنو سامان المرأة إنصافا يعجز المعاصرون عن فعله، بأن أعطوها حقها فى الميراث كاملا، وحقها فى التعليم فقد فتحت المدارس للرجال والنساء معا وكانت المرأة تحضر حلقات العلم فى المساجد والمدارس والبيمارستانات [المستشفيات] التى أكثر السامانيون منها بل وجدنا المرأة فى العصر السامانى عالمة ومعلمة.

كما خرجت المرأة خلف الجيوش مجاهدة تضمن الجرحى وتسقى العطش فساهمت بقدر كبير فى الحياة الاقتصادية والعلمية والأدبية فى العصر السامانى.

أهل الذمة: من اليهود والنصارى، الذين تمتعوا بقسط وافر من الحرية داخل المجتمع السامانى الواسع الذى كان يوجد فيها الآلاف من أهل الذمة، الذين أعطاهم السامانيون كثيرا من أهل الجزية، فأحبوا الإسلام ودخلوا فيه.

كما كانت لسياسة العدل التى أتبعها السامانيون فى بلادهم أثرها فى نشر الإسلام بين الأتراك والصينين الذين تحولوا إلى قوة مدافعة عن الإسلام بعد إن كانوا قوة مضادة هادمة فقد أشركوهم فى أداره بلادهم، وفى العطاء والغنيمة، وأسقطوا عنهم الجزية، فزاد عدد المسلمين الأتراك زيادة كبيرة.

د - الدولة الغزنوية وبلاد ما وراء النهر

(٢٥١/٥٨٢هـ/٨٦٥-٧٨٦م)

اعتمد السامانيون على الأتراك فى تيسير أمور دولتهم وكان قوام جيشهم منهم وولوهم المناصب العسكرية والمدنية، ومن أبرز هؤلاء الأتراك (البتكين) الذى كان يعمل فى الجيش السامانى، وقد صار له حكم خراسان وقد قوى شأن البتكين فى إقامة وتوطيد سلطانه، ولم يدم الحكم طويلا فى أسرته إذ آلت الأمور إلى أحد قواده وهو (سيكتين) وتولى إمارة غزنه عام(٣٦٦هـ - ٩٧٦م) وتستمد هذه الدولة اسمها من العاصمة غزنة حيث يرجع ظهور هذه الدولة الغزنوية إلى اسم عاصمتها غزنه، ولكن الدولة الغزنوية كانت لا تزال على ولائها للأمراء السامانيين. ولما زاد ضعف الأمراء السامانيون طمع فيها أمراء البلاد المجاورة (الخوارزميين) فلم يرا الغزنويون بدا من الاستيلاء على البقية الباقية من ملك إلى سامان وتوسيع رقعة دولتهم على حساب السامانيين، ولما كان ملك الأتراك يهدد سيادة السامانيين. نجد الأمير السامانى يستنجد بسكيتكين والذى استطاع أن يحقق السيطرة على أعداء السامانيين. وفى عهد محمود الغزنوى بن سبيكيتكين لما رأى من ضعف الأمراء السامانيين ومدى طمع القادة فيهم عمل على تنفيذ خطته فى التوسع على حساب السامانيين، وكان محمود الغزنوى قد استطاع أن يضم خراسان ويستولى عليها ويزيل كل أثر للسلمانيين، وكان محمود الغزنوى قد استطاع أن يستولى على نيسابور وبذلك تحكم فى أخر أراضى الدولة السامانية،وقد أخضع الغزنونيين وكذلك وصل نفوزهم إلى خوارزم شمالا وذلك منذ عام(٤٠٩هـ/١٠١٨م) لكن الخوارزميون عملوا على الاستعانة بالسلاجقة للاستقلال عن الغزنويين، وكانت الغزنويون قد بدءوا هجومهم على طبرستان وجرجان، ومن هنا عملوا على القضاء على حركات التمرد والعصيان التى تقوم ضدهم فى هذه الأنحاء لاسيما بعد أن أخضع حكام الدولة الغزنوية خراسان وغزنه وسجستان وكرمان ومكران والرى وأصفهان وبلاد الجبل وجنوب بلاد ما وراء النهر وبعض هذه البلاد تقع داخل أراضى أواسط آسيا وداخل الجمهوريات الإسلامية التى استقلت عن روسيا (الاتحاد السوفيتى١٩٩١م).

وكانت قد دارت معارك بين الغرنويين فى عام (٣٩٦هـ ١٠٠٥م) وبين ملك الترك (أيلك خان) الذى كان قد سيطر على بلاد ما وراء النهر والواقعة داخل أراضى فى بلاد الدولة الغزيونية لا سيما الأقاليم الواقعة إلى الجنوب من بلاده والواقعة داخل أراضى ما وراء النهر، وكان قد عمل على امتلاك خراسان لذا نراه يستنجد بكل قواته التركية فى أقاصى البلاد، لكن محمود الغرنوى استطاع أن حقق انتصارا على قوات الأتراك ومد أملاكه إلى الشمال داخل ما وراء النهر عام (٣٩٧هـ - ١٠٠٦م) ولم يستطيع الأتراك اغتصاب خراسان من الدولة الغرنوية بعد هزيمة السلطان محمود لهم، وقد عمل الترك بعد أن رأوا قوة السلطان محمود على تحسين علاقاتهم به وعدم الاعتداء على دولته، وكان (قدرخان) قد تولى حكم تركستان عام (٤٢٢هـ - ١٠٣٠م) ثم تركت إغارات الغرنويين على هذه الأقاليم إذ نجد وإلى خوارزم فى عام (٤٢٤هـ - ١٠٣٢م) يقوم بالإغارة على خراسان وتزمد وصغايتان وسمرقند ولكن هذه البلاد استعصت عليهم لذا أرسلوا إلى السلطان مسعود بن محمد الغرنوى لطلب الصلح وكف العدوان على أراضى الدولة الغزنوية. وبذلك انتهى الصراع بين الترك والغزنويين وبذلك عظمت أملاك الدولة الغرنوية وقوى بأسها بعد أن دخلت فى طاعتها العديد من مدن وسط وجنوب بلاد ماء وراء النهر، وكلك قزوين وأقيمت الخطبة للغزنويين فى هذه البلاد حتى حدود أرمينية وانضمت خوارزم إلى ملك الغزنويين.

وكانت خوارزم قبل ظهور الغزنويين إمارة مستقلة لكن السلطان محمود الغزنوى سعى إلى ضمها بعد أن أعترف أميرها بسيادة الدولة الغرنوية. وصفوة القول أن السلاطين الغرنويين الأقوياء نجحوا فى توسيع رقعة دولتهم حتى اشتملت على مساحات كبيرة فى جنوب غرب آسيا وضمت أفغانستان وبعض البلدان فى فارس وما وراء النهر يضاف إلى ذلك بلاد الهند.

وفى واقع الأمر إن الدولة الغزنوية كانت أول انتصار للعنصر التركى فى صراعه مع العنصر الفارسى، ففى الوقت الذى كانت فيه الدولة الغرنوية التركية تحقق انتصاراتها فى فارس على الدولة البويهية الفارسية كان هناك عنصر تركى جديد يستعد لإكمال الجولة ذلك هم السلاجقة الذين مالبثوا أن ظهروا كقوة استولت على مقاليد الأمور فى خراسان وبلاد ما وراء النهر وحكموا الشرق

الإسلامى بعد اتسعت رقعة دولتهم حتى أصبحت تضم شمال الهند شرقا والعراق وإيران وخراسان وطخراستان وعاصمتها بلخ وجزء من بلاد ما وراء النهر فى الشمال وترستان فى الجنوب.

وقد انتهت الدولة الغزنوية عام (٥٨٢هـ - ١١٨٦م) بعد أن ظلت تحكم أكثر من قرنين من الزمان على أيدى الغور، وكانت الدولة قد تعرضت لأخطار جسيمة من جيرانها الأقوياء السلاجقة الذين لم يألوا جهدا فى انتزاع بلدان الغزنوية.

وصفوة القول أن الدولة الغزنوية، التى قامت على أنقاض بلاد السامانيين كان لها نشاط سياسى كبير فى جنوب غرب آسيا، فاستطاع سلطانها حكم دولة متعددة الأجناس والشعوب فى قوة وحزم، على أن عوامل الضعف والانحلال ما لبث أن عرفت طريقها إلى الدولة الغزنوية فقوى شأن جيرانها السلاجقة والغور وقاموا بتوسيع نفوذهم على حساب الغرنويين وكان ذلك فرصة أمام العناصر المنطلقة للاستقلال عن الدولة لرفع رأيتها فأخذت الدولة الغزنوى تفقد أملاكها حتى قضى الغور فى نهاية الأمر على البقية الباقية من مملكتها وهكذا تجمعت عوامل متعددة أدت فى النهاية إلى ضعف الدولة الغرنوية وانهيارها فى أخر الأمر، وكان من أكبر العوامل التى عملت على انهيار الدولة الغزنوية ظهور الأتراك السلاجقة وسعيهم إلى توسيع ممتلكاته معلى حساب الدولة الغزنوية، كما أن الغور قد خرجوا من عزلتهم السياسية وعملوا على مد نفوذهم فيما وراء حصونهم، وكان الغور قد خرجوا من عزلتهم السياسية وعلموا على مد نفوهم فيما وراء حصونهم، وكان خير مدان لتنفيذ سياستهم أراضى الدولة الغزنوية اليت أخذت عوامل الضعف والانحلال تنهال فيها حتى انهكت قوتها ولم تعد تستطيع مقاومة أعدائها الأشداء وبعدها سقطت فى أيدى الغور السلاجقة وهكذا أدت الدولة الغرنوية دورها خلال ثلاثة قرون متواصلة فى جنوب غرب آسيا وأوسطها فى العمل على تثبيت أركان الإسلام وتعميق المفاهيم الإسلامية وإن كانت هذه الدولة تختلف عن كل الدولة السابقة (الطاهرية، الصفارية) فى أن هذه الدولة قامت على أكتاف عناصر فارسية إيرانية استعانت ببعض العناصر التركية لاستمرار حكمها فى تلك الانحاء إلا أن الدولة الغزنوية كانت أول دولة إسلامية تركية ومنها بدأت

ملامح الثقافة والحضارة الإسلامية التركية تأخذ بعدا جديدا فى الدولة الإسلامية، وبدأت ملامح ظهور اللغة التركية على الساحة الإسلامية وكان ذلك مقوما أساسيا فى بناء كيان الدويلات الإسلامية الصغيرة التى ظهرت فى أواسط آسيا فى الساحة الواسعة التى تشمل جمهوريات آسيا الوسطى الخمس الكبرى التى نعرض لتاريخها فى هذه الدارسة.

ونقول إن سقوط الغزنويين كان سببا فى ظهور قوة السلاجقة الأتراك وكذلك الخوارزمين الذين بسطوا نفوذهم على الأجزاء الشمالية من أواسط آسيا حتى قدوم المغول.

المجتمع الغزنوى:

عناصر المجتمع:

يمكن القول بأن المجتمع الغزنوى فى أواخر القرن الرابع الهجرى هو المجتمع الوحيد الذى جمع فى عناصر مختلف الأجناس والألوان والديانات، فقد تألف من عدة أجناس بشرية شاركت فى بناء الهيكل الاجتماعى للدولة الغزنوية، وساهم كل جنس فى الحياة مساهمة فعالة، وشمل أجناسا من العرب والفرس، والترك، والهنود، وغيرهم.

ويرجع انتشار العرب فى أقاليم بلاد إيران وما وراء النهر، والسند إلى عصر الفتوحات الإسلامية منذ القرن الأول الهجرى. ويبدو أن الجنس العربى قد تناقص فى القرن الرابع والخامس، وذلك بسبب عدم استمرار الهجرات العربية فى العصر العباسى، ولأن عرب الفتوحات على قلتهم، قد تزاوجوا مع أهل الأقاليم التى دخلوها فاندمجوا فيهم، مما أذاب الجنس العربى بمرور الزمن. على أن فئات من العرب لم تمتزج بغيرها وهم إما من البدو الرحل، أو المحافظين الذين لم يتزوجوا من غير جنسهم.

ويكثر الوجود العربى فى إقليم السند، وخاصة «الملتان» و«المنصورة» و«طوران»، وقد كان تركزهم حول مدينة الملتان بشكل كبير، يذكر المقدسى أنهم يمثلون الأغلبية هناك، على أن المصادر لم تكشف عن إحصائية مفصلة أو تقريبية عن نسبة الوجود العربى هناك. وأكثر انتشار العرب فى إقليم خوزستان، كما

انتشروا فى خراسان. فيذكر الأصطخرى أن أهل خوزستان كانوا يتكلمون العربية والفارسية. وتشير بعض المصادر إلى أن العرب أيضا كانوا يقيمون فى مراعى خراسان وينتشرون حول نهر جيحون، حيث يقومون برعى الأغنام، وعرفت أحياء هناك بأسمائهم.

ويتصل بالوجود العربى اللغة العربية، فمما لا شك فيه أنها كانت لغة الدواوين الرسمية فى الدولة الغزنوية وخاصة بعد تولى الوزير الميمندى سنة ٤٠٤هـ، وكانت لغة عرب غزنه وخراسان فيما بينهم، ولكن هل كانوا يخاطبون بها أهل الإقليم الذى ينزلون فيه، أو كيف كان يتم التفاهم مع الفرس أو الهنود أو الترك؟. الحقيقة أن المصدر لم تتكشف عن ذلك، ولا نستطيع الجزم بنفى ما إذا كان العرب قد عرفوا لغة أهل البلاد من الفرس وغيرهم قد عرفوا بعض مبادئ اللغة العربية، لأن ذلك ضرورة تفرضها عليهم طبيعة الدين الإسلامى. وعلى هذا يمكن الربط بن القولين، بأن العرب تعلموا مبادئ لغة أهل البلاد للضرورة المعاشية، وتعلم أهل البلاد مبادئ لغة العرب للضرورة الإسلامية، فوجد فيما بينهم نوع من التفاهم المزدوج الذى سهل الاحتكاك بين الجميع والله أعلم.

وقد كان عر خراسان وما وراء النهر عدا قليل منهم فى ذلك الزمن فى معيشة بدوية تميل إلى الشدة وشظف العيس، ولعلهم كانوا يفضلون ذلك، لأن طبيعة العربى تميل إلى عدم الاستقرار فى العادة، ولذلك ينشأ أبناؤهم ونشأة خشنة ذات نزعة حربية، وربما ذلك لرد عادية الطامع فى أموالهم ومواشيهم، ومن هنا أفادت الدولة الغزنوية كثيرا من الأحياء العربية المنتشرة فى البلاد. غير أن العرب الذين كانوا يقيمون بنواحى السند، أكثر ميلا إلى الاستقرار لمزاولتهم التجارة وأعمالها، فكثرت أعدادهم، وعلا شانهم، واتسعت ممتلكاتهم.

وقد شارك العرب فى الحياة السياسية، إلى جانب دورهم الاجتماعى فى حياة الدولة الغزنوية، فقد كان حاك «المنصورة» و«حاكم الملتان» عربيين من قريش، ومن أسرة تنتمى إلى شخص يعرف بـ «هبار بن الأسود» وكانا لا يدينان لخليفة معين، ولما انتشرت دعوة الإسماعيلية الفاطمية فى الملتان، أعلن واليها الدعوة للخليفة الفاطمى، بينما بقى والى المنصورة يدعو للخليفة العباسى. ولكن الغرنويين استطاعوا طرد دعاة الإسماعيلية من «الملتان» وضمها إلى دولتهم. كما

كان لقبيلة ابن بهيج «العربية دور فى القضاء على آخر أمراء الدولة السامانية» إسماعيل المنتصر سنة ٣٩٥هـ، إذ قبضوا عليه ثم سلموه للسلطان محمود الغزنوى. ودخل العرب فى جيوش الدولة الغزنوية، وساهموا ف حركة الجهاد فى الهند، والتوسع الداخلى، فكان «أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطائى يقود كتيبة عربية، شاركت السلطان محمود فى جلائل أعماله العسكرية. وعد العرب ملجأ للدولة الغزنوية فى أحلك الظروف العصبية، فقد استعان بهم السلطان «مسعود الأول» فى الكفاح ضد السلاجقة ويعول عليهم فى ذلك.

الترك:

على الرغم من قلة عنصر الترك، فقد ساهم مساهمة فعالة فى الحياة السياسية والاجتماعية، ويمثل العنصر التركى فى الدولة الغزنوية أكثرية نسبية إذا ما قيس بالوجود العربى فى أنحاء المملكة. ومن هذا العنصر الطبقة الحاكمة من السلاطين وكبار القادة والأمراء والأعيان والرقيق. ويرجع انتشار الترك إلى عاملين، أولهما – الهجرات التركية البدوية المستمرة على إيران طيلة عهد السلطان محمود الغزنوى، والسلطان مسعود الأول، وثانيهما جلب العنصر التركى من بلاده على سبيل «الرق». ومهما كان الأمر فقد تزايدت أعداد الأتراك فى أرجاء البلاد الغرنوية، وكان الأرقاء منهم أسعد حظًا من مهاجرى البدو الرحل من ذلك لأنهم حظوا بعناية كافية لدى السلاطين والأمراء فكانوا يعدون للخدمات الكبرى مثل حماية قصر السلطان، وارتقوا إلى الحاجبة وقيادة الجند، وكان منهم من عزز به قواد الجيش. وأحيانا ارتقى بعضهم إلى درجة الوزارة، كما حصل لأحد غلمان السلطان محمود الغزنوى، ويعرف بـ «حسنك»، وشغل منهم مناصب الحجابة وأخرى قيادية أمثال «ألتونتاش خوارزمشاه» و«أرسلان الجاذب» و«على بن إيل القريب» و«أريارق» الذى عمل واليا على الهند فى عهد السلطان «مسعود الأول»، ثم خلفه «احمد بن ينالتكين»، ومنهم «بكتغدى» «والحاجب» «سباشى» اللذان قادا عدة حملات ضد المتمردين فى أجزاء خراسان. ومن أبرزهم «طغرل» غلام السلطان عبد الرشيد الذى استلب السلطة من سيده سنة ٤٤٣هـ، وغيرهم.

أما الأتراك البدو فكانوا يقومون برعى المواشى وينتقلون وراء العشب. وإذا

ما غفلت عنهم الدولة فإنهم يقومون بشن الإغـارات المجاورة لمراعيهم بغية الكسب والحصول على المال عن طريق السلب، وكانوا مـصدر إزعاج لولاة الدولة الغزنوية فى خراسان ونتيجة لتمادى السلطان «مـسعود الأول» فى أمرهم فما لبثوا أن نظموا صفوفهم لمحاربة الدولة الغزنوية، غير أن ضعف المقاومة من جانب الغزنويين مكن طائفة «السلاجقـة» من الترك من إقامة دولتهم فى خراسـان «على أساس متين من الجفاء والبداوة المعروفين عنهم»، وعرفت فيما بعد بالدولة السلجوقية.

ولعل الأتراك كانوا يستعملون لغتهم التركية بشكل محدود فيما بينهم، إذ لم تكن لغة أدب أو علم فى ذلك الوقت كاللغة العربية مثلا، ويمكن القول بأن طبيعة دخولهم إلى البـلاد الغزنوية، قد ألزمـتهم تعلم لغة المواطنـين الأصليين وهى فى الأغلب الفارسية، ولا يتعلم العربية منهم إلا فئات خاصة من الأعيان والسلاطين. على أن اللغة التـركية قـد أدخلت على الفارسـية بعض المصطلحات مـثل «سلاح خاناه»، «دوات خاناه»، وغيرها، وهذا مما لا شك فـيه أثر من أثار الترك فى الحياة الاجتماعية.

الفرس:

كان العنصر الفارسى يمثل الأغلبية الساحقة فى المجتمع الغزنوى، قبل غزو السلاجقة لإيران وطرد الغزنويين من جميع أقاليـمها تقريبا، وقد كان لهذا العنصر دوره الحضارى الرائد فى الناحية الاجتماعيـة والسياسية، وقد اعتمدت إدارة الدولة الغزنوية على العنصر الفارسى منذ قيـامها، فكان منهم الوزراء والكتاب الممتازون، وقد لعب كـثير من أولئك الرجـال الكبار من الفـرس دوراً هاما فى رسم سيـاسة الدولة، ومعاونة السلاطين فى مختلف المواقف السياسية فى الداخل والخارج.

ويغلب على الجنس الفـارسى طابع الاستـقرار، عكس سـابقيـه، وذلك مما ساعد على ازدياد النشاط الزراعى والصناعى والتـجارى فى البلاد، فأغلب السكان يزاولون حرفـة الزراعة فى مختلف أرجـاء البلاد وتعتـمد حياتهم على منتـجاتهم الزراعية، بينما يقوم آخرون بمهنة الصناعة والتـعدين ويجهدون أنفسهم فى البحث عن المعـادن فى مناطق مـتفـرقة من البـلاد، ومنهم من اتخـذ من العلم والتـعليم والتأليف والتدوين وسيلة للتكسب، بينما أخذ الـبعض الآخر بجانب الاستقرار فى المدن فكان لهم دور فـى تقـديم الخـدمـات المدنيـة من إنشـاء الأسـواق والفنادق

والمطاعم، والحمامات لخدمة النزلاء من أرباب العلم والتجارة والصناعة. فعمرت المدن وازدهرت البلاد، وبهذا تنوعت حقول النشاط البشرى فى البلاد، وغدا المجتمع كخلية النحل دائب الحركة.

الهنود:

أغفلت المصادر ذكر حياة الدولة الغزنوية فى الهند وهو جزء كبير من حياة هذه الدولة استمر أكثر من قرن (٤٣٢ - ٥٨٢هـ)، ولا ندرى لماذا؟.. ومن هنا فلم نظفر بمعلومات كافية فى هذا المجال.

وقد بدأ ظهور العنصر الهندى فى المجتمع الغزنوى منذ قيام دولة الغزنويين وامتدادها فى الهند، ويبدو أن دور هذا العنصر كان خاملا فى الناحيتين السياسية، والاجتماعية، فلم يكن أحد أحد من الهنود من أصحاب المناصب الكبيرة فى الدولة، كما لم تكشف المصادر التى وصلت إلينا عن دورهم الاجتماعى. ويرجع وجود الهنود إلى عاملين أولهما، الرق الذى أعقب الفتوحات فى الهند. وثانيهما الولاء للمسلمين فى البنجاب والسند، والملتان والمنصورة وحوض نهر «مهران» قبل ذلك. وكان الرقيق يقوم بدوره الخاص فى الحياة الاجتماعية من أواع الخدمات المنزلية. أما الهنود المستقرون فى الملتان والمنصورة وحوض نهر «مهران» قبل ذلك. وكان الرقيق يقوم بدوره الخاص فى الحياة الاجتماعية من أنواع الخدمات المنزلية. أما الهنود المستقرون فى الملتان والمنصورة وحوض نهر مهران «السند»، فكانوا أصحاب زراعة، وأكثر زراعاتهم الأرز والحنطة التى يقدمونها للعرب المقيمين فى إقليمهم، ومنهم فئات استقرت فى المدن وزاولت عمليات تجارية وخدمات مدنية. أما قبائل «السومرهط والبدهة» فهى قبائل رعوية اعتمدت حياتها فى ذلك الوقت على رعى الأبل المشهورة بالإنتاج الوافر، وينتشرون فى حوض السند الغربى إلى حدود مكران فى منطقة الرعى، وكانوا يدينون بعبادة الأصنام.

على أن هناك شكا فى عدم مشاركة الهنود فى الحياة السياسية الغرنوية للدولة الغروية، خاصة بعد انحسار النفوذ الغرنوى فى الهند لأكثر من قرن من الزمن، وهذا يعنى أن المجتمع الغرنوى قد أصبح مجتمعا هنديا خالصا من أوائل القرن الخامس الهجرى، ولا يمكن نفى ذلك أو الجزم به، لأن المصادر لم تكشف عنه. ويمكن أن يكون العنصر الهندى قد تأثر بالحياة الاجتماعية أيضا.

أهل الذمة:

وهم أخلاط من أجناس مختلفة، ويأتى على رأس أهل الذمة «المجوس غبار النار» وهم من بقايا الفرس الذين لم يعتنقوا الإسلام، فبقوا على دينهم ليعالموا معاملة أهل الذمة. وقد عاشوا إلى جانب المسلمين فى رعاية تامة، وحفظت لهم الدولة الغزنوية حقوقهم بحيث لم يثيروا أى فتنة، وكانوا لذلك يمارسون حياتهم الاجتماعية بحرية، وينتشر المجوس فى «هراة» و«بست» وأنحاء خراسان فى «بلخ» و«نياسبور» و«مرو» غيرها، وفى أصفهان وهمذان والرى وكرمان. وتشير بعض المصادر إلى أنه لا تكاد تخلو قرية من قرى فارس من بيت نار للمجوس. وتصل نسبتهم فى بعض نواحى البلاد إلى ما ينيف على خمسمائة ألف بيت. وقد أثروا الحياة الاجتماعية مثل الاحتفال بعيد «السذق».

أما اليهود فكانوا ينتشرون فى جهات متفرقة من أرجاء البلاد الغزنوية، ويمثلون أكثرية من النصارى فى كل إقليم، فهم يكثرون فى خراسان، وأصفهان، وهمذان، والرى، وينتشرون فى «غزنة» و«كابل» بأعداد كبيرة، كما يوجد أعداد منهم فى «بلح» و«جوزجان»، وتذكر المصادر أنه كان فى «كابل» حى يهودى، وهناك باب من أبواب مدينة «بلخ» عرف بباب اليهود، كما أن مدينة «اليهودية» من أكبر مدن «جوزجان» وأنها كانت تشتهر بالتجارة بينما كانت مدينة باسم «اليهودية» أيضا فى إقليم أصفهان وتعتبر درة الإقليم. ولعل ما ذكرناه يدل على أن اليهود كانوا ينتشرون بشكل فعال فى أرجاء الدولة الغزنوية. وقد أورد «آدم متز» المستشرف، إحصائيات لليهود فى القرن الرابع نقلا عن الرحالة اليهود «بنيامين» فى ذلك الوقت، فقال بأنه كان بهمذان ثلاثون ألفا، وبأصفهان خمسة عشر ألفا، و«شيراز» عشرة آلاف، وبسمرقد ثلاثون ألفا، ثم يعقب بقوله: إن الأرقام هذه تقريبة لأن بنيامين لم يزر المشرق. ويبدو أن دور اليهود فى المجتمع اقتصر على التجارة، وذلك لإقامتهم فى المدن التجارية الكبرى التى تقع على خطوط التجارة البرية الكبرى فى ذلك الزمن، فمثلا «غزنة» و«كابل» كانتا تعدان فرضتى الهند، ومدن بلخ ونيسابور والرى من المدن التجارية العظمى أيضا.

أما الوثنيون، فكانوا ينتشرون فى كثير من مدن السند فى «طوران» و«المنصورة» و«الملتان»، وهم من الهنود البدهة، والزط، والسومنيون، وعلى الرغم من كثرة أعدادهم فقد كان يحكم المدن التى يقيم المسلمون أو بعضهم بها شخص من المسلمين أنفسهم. ولما دخلها الغزنويون آلت السلطة إليهم وعاملوا وثنى السند كأهل الذمة. غير أن هؤلاء الوثنيين قد خلعوا ربقة الطاعة فى عهد السلطان عبد الرشيد الغرنوى، وتجمعوا حول ملكهم الجديد «سومرة» واستقل هذا بنواحى «تهرى» والأجزاء الجنوبية لحوض السند.

فئات المجتمع:

ونبدأ بالأسرة الحاكمة التى تأتى أعلى قمة الهرم الاجتماعى، ومما لا شك فيه أن هذه الفئة قد تأثرت بالمجتمع، وأثرت فيه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وعلى الرغم من أن سلاطين الدولة الغرنوية قد جمعوا فى قصورهم أعدادا من الرقيق والخدم، فإنهم لم يغفلوا عن حاجتهم إلى المجتمع المدعم لحكمهم، فالوزير المدبور للامور، والعالم المفصح عن تجربة، والقائد الكافى لشئون الأمن، والفقيه المبصر بأمر الدين، والشاعر المخلد للأمجاد، وكذا الكاتب وغيره، وهكذا أصبح من الضرورى أن تتكون حاشية السلطان من هذا المزيج الاجتماعى.

كانت الأسرة الغزنوية إبان قيام الدولة فى غاية من البساطة والبعد عن التعقيد، كما كانت مقابلة السلطان تتم بدون وساطة ما وفى أى مكان وزمان. ولم يجد الملوك الأوائل من سلاطين «غزنة» غضاضة فى ذلك، فنلاحظ الأمير سبكتكين يهب مع الفلاح إلى بستانه ليرى ما أفسدته عساكره ويعوض الفلاح وينتصف له من الجند. والسلطان محمود يذهب مع أحد المواطنين لينتصف له من رجل آذى المواطن فى بيته. إلى غير ذلك من الأفعال الحميدة للسلاطين والأمراء الغزنويين. غير أن رقعة الدولة لما اتسعت، وتعددت المسئوليات، ونظمت شئون الدولة، أصبح الوصول إلى السلطان، يتم عن طريق منظمة قضت على روح البساطة الأولى. فاتخذ السلاطين لهم حجابا ووزراء يرفعون إليهم الشكاوى، وينظرون فيمن يدخل على السلطان، كما نظمت مجالس السلطان فمجلس يباشر فيه أعمال الدولة، وآخر للطعام، وآخر للترفية والتسلى بسماع الشعر ومخالطة الندماء إلى غير ذلك، وقد نظمت أوقاته أيضا بين الجد واللهو، وهكذا ابتعد

السلاطين عن رعيتهم، وتبع ذلك ابتعاد تدريجى فى الأحاسيس والمشاعر، الأمر الذى آذن بنهاية النفوذ الغزنوى فى خراسان وإقليم الجبال (الرى وهمذان) وغيرها سريعا على أيدى السلاجقة.

ويتصل بالسلطان أفراد أسرته من الأقارب، وما يتبعهم من الموالى والخدم وأبناء السلطان وأحفاده وأخوته يعرفون بالأمراء، وعادة ما ينشأ الأمير فى منزل والده وتحت رعايته، فإذا ما شب عن الطوق الواحد من الأبناء فإنه لا يتقيد بالحياة فى قصر الأب، ويذهب إلى المعيشة فى منزل خاص به يتخذ فى العادة فى إحدى ضواحى العاصمة، ويمكن اختيار المنزل فى إحدى مدن البلاد الغير بعيدة عن العاصمة. وجرت العادة على تربية الأمراء فى صغرهم فى أحدى الضواحى أو المدن القربة من «غزنة»، كما فعل السلطان محمود بابنيه مسعود، ومحمد، وأخيه الصغير الأمير «يوسف»، إذ أرسلهم إلى بلاد «دارو»، وأسند الإشراف على خدمتهم إلى «ريحان الخادم»، وأبنائه ويتعلمون هناك القرآن الكريم إلى جانب التفسير وسيرة النبى ﷺ، ويدرسون الإنشاء، ويستمعون إلى بعض الحكايات والسير والأخبار، وتنظم أوقاتهم بحيث يتعلمون، ويتنزهون، ويشاهدون ألعاب الصولجان، ويدربون على الصيد.

وعندما يكبر الأمير ويبلغ مرحلة الشباب المبكر تسند إليه أمارة بلد من البلدان، وربما منطقة كبيرة، على أن تكون السلطة الفعلية والحزم، والبت بيد «الكتخدا» أو المشرف على الأمير، ويكون فى الغالب من ثقات السلطات وكبار رجاله، وذلك بهدف إعداد الأمير للحياة السياسية العامة فيما بعد.

وقد جرت العادة على إطلاق لقب «الحرة» أو «الحرائر» على الحريم السلطانى، وكان لبعض أولئك الحرائر دور فى الحياة الاجتماعية والسياسية، وما قامت به عمه السلطان مسعود الأول المعروفة بـ «الحرة الختلية» يدل على مدى فعالية الحريم السلطانى، ونشاطهن السياسى المثمر، فقد كانت تطلع «مسعود الأول» على ما كان يدور فى القصر من الأخبار المهمة من أن كان وليا لعهد أبيه، واهتمت بذلك حتى أثناء وفاة السلطان محمود الغزنوى، فكان من ضمن رسائلها تلك الرسالة التاريخية، التى أرسلتها إلى الأمير «مسعود الأول» عقب وفاة أبيه سنة ٤٢١هـ، وكان «مسعود» فى «أصفهان»، وأوضحت له فيها تفاصيل الأحداث فى «غزنة»، وأوقفته على أبعاد.

ويبدو أن فئة كبار الموظفين فى الدولة من وزراء وأمراء وقادة، قد ارتبطت حياتهم الاجتماعية بالسلطان، وحاجة السلطان الدائمة إليهم فى مختلف مجالسة، ومن هنا لم تكشف المصادر لنا عن الصورة الخاصة لحياة تلك الفئة من حيث دورها الاجتماعى كاملا، غير أنهم كانوا ينعمون بعيشة مترفة بما حولهم من أبهة وخدم وغلمان وجوارى، وكانوا مقصدا للشعراء وذوى الحاجات. وكثيرا ما تمتع ولاة الأقاليم بمراكزهم الاجتماعية وكانت مجالسهم لا تخلو من الندماء من أدباء وشعراء ومغنين. أما موظفو الدواوين من كبار الكتاب، فكان ارتباطهم بشئون الدولة بمقدار فترة الدوام الرسمى، ولا يحتاج إليهم بعد ذلك، إلا إذا بلغ الأمر خطورته فى قضية أمنية تمس شرف الدولة داخليا، أو خارجيا، وفيما عدا ذلك فهم ينعمون بحياة مستقرة هادئة فى منازلهم الخاصة، التى يغلب عليها طابع الترف، وكانوا يجمعون حولهم فئة خاصة من الندماء والأدباء المثقفين، وتجرى فى مجالسهم المذاكرة فى قصص وحكايات وأشعار مما يروح عن النفس ويسرى بالهم. ذلك إلى جانب اهتمامهم بشئونهم الخاصة، وتنمية مواردهم بالمتاجرة بما يحصلون عليه من مكافآت تشجيعية من السلطان.

ومن الجدير بالذكر أن فئة الأعيان والأمراء والرؤساء كانت تختار لمن يؤدب أبناءهم مؤدبا خاصا، وقد اشتهر من المؤدبيين «بنيسابور» - مثلا - كثير منهم، أبو بكر محمد ابن العباس الخوارزمى و«أبو القاسم الحسين بن أسد العامرى وابنه طاره» و«أبو العباس محمد بن أحمد المأمونى» وغيرهم. أما أولاد القادة وكبار الجند فقد عرفوا من بين سائر تلاميذ المدارس بـ «الأبناء».

أما فئة العلماء من قضاة وفقهاء وكلاميين وغيرهم، فقد اقتصرت على نفسها، فكان نشاطهم الاجتماعى مقتصرا على العلم والمعرفة، والنظر فى الكتب، وعقد المناظرات ومتابعة الدرس، وإصدار الفتوى، وإجراء التجارب، وغير ذلك. ولم تكن هذه الفئة كثيرة التردد على مجالس السلاطين وولاة الأقاليم لاستجداء ما عندهم، فقد كان السلاطين والولاة عادة، يبعثون فى طلب عالم كبير للاستئناس بفكرته، أو استجلاب الفائدة من تجاربه. على أن هذه الفئة بمختلف مستوياتها العلمية تدين فى قراراتها بالولاء التام للدولة، وهى أكثر الفئات شعورا بالتمسك بالوفاء بعقد الطاعة لولى الأمر. وكان انطواء هذه الفئة على بعضها كثيرا، مما شد

أزر الحركة العلمية فى أرجاء الدولة الغزنوية، وبالتالى سجل لها المشاركة فى النهضة الحضارية التى شهدها العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى. وكان من عادة أفراد هذه الفئة كثرة الأسفار من بلد إلى بلد لمقابلة علمائها والتزود من معارفهم، ومناظرتهم فى مجالات العلوم المختلفة أو مكاتباتهم فيها، وقد جرت عادة بعض العلماء على الزهد فى الدنيا ونعيمها والقناعة بالكفاف من المعاش، وقد أثر عن البيرونى وغيره من العلماء أنهم عندما تعطى لهم مكافأة كبيرة، أخذوا منها ما يكفيهم، ثم وزعوا ما تبقى على الفقراء وذوى الحاجة. وجرت عادة الفقهاء والزهار والمتوصفة على قضاء معظم أوقاتهم فى المساجد، فقد اشتهرت بذلك، مساجد مدن «هراة» و«بلخ» و«سجستان»و «مرو» و«نيسابور» بازدحام الفقهاء والزهاد وأرباب القرآن.

أم فئة الحرف فقد تركزت حول بعضها فى المسكن والمعاش، فيذكر المقدسى أن فئة التجار وأهل اليسار على تنوع معروضاتهم كانوا أهل ميل إلى سكنى المنازل الجميلة الواسعة التى عرفت فى لك الوقت بالفنادق، ونظمت فى مدينة «نيسابور» و«غزنة» بحيث أصبح لكل نوع من التجار سوق يتبعه نزل خاص بأهله، وهو مجوعة الفنادق التى تضاهى غيره من ألوان التجار وأهل الأموال الغزار. أما الخرازون، والقلانسيون والأسافكة والحبالون، فكانت لهم منازل أقل درجة من التجار وأهل اليسار، وهى عبارة عن حجرات تميل إلى الرداءة فى بعض منافعها، وتقع فيها حوانيتهم. أما فى «غرنة» فقد أفرد أرباب الحرف فى أماكن منفصلة عرف كل مكان بأصحاب حرفته، فقد عرفت قرية الحدادين، وسوق الصيارفة، وأماكن أرباب الحرف الأخرى. ويمكن أن يكون هذا التنظيم قد شاع فى سائر مدن البلاد الأخرى.

أما الشعراء، فإن صحت الروايات المتعدة من أنه كان يمشى فى ركاب السلطان محمود الغزنوى وحدة قرابة أربعمائة شاعر، من شعراء الفارسية والعربية، فذلك يعنى أن الشعراء قد كونوا مجمعا كبرا للشعر، وسوقًا للأدب رائجة. وكان من عادة الشعراء القيام بالمبارزات الشعرية سوا فى حضرة السلطان، أو مجلس خاص لأحد الأدباء، وأحيانا لا يألفون إلا لمن يجاريهم فى قول الشعر.

وكان الفلاحون أبعد ما يكون عن النشاطات السياسية، والاجتماعية البارزة وإن كانوا يسهمون فى توفير احتياجات البلاد من الأغذية المتنوعة، غير أن المصادر لم تفصل كثيرا من جوانب معيشتهم والثابت أن المزارع أكثر أفراد المجتمع ارتباطا بالأرض والأسرة، فلا يسهم فى الحملات الحربية، ولا فى دفع عجلة النهضة الحضارية إلا بجزء يسير أو نادر. ولا يعنى هذا القول خمول دورهم، فقد كانت تقع عليهم أعباء الظلم الذى يفرضه عليهم الدهاقنة وولاة الأقاليم فى دفع الخراج بمبالغ مضرة بهم أحيانًا.

الحياة الاجتماعية

المؤثرات الاجتماعية

أ - الحالة الأمنية:

لم تكن للدولة الغزنوية خطة أمنية محددة المعالم، ومن خلال الدراسة المركزة فى اخبار هذه الدولة يمكن القول بأن السياسة الأمنية للدولة قد شملت أربعة برامج، أولها: قمع الفتن فى الداخل ليعيش المجتمع فى أمن وسلام. والثانى: تأمين الطرق الداخلية والمنافذ التجارية فى الداخل، وحمايتها من اللصوص لنشاط التجارة والتسويق. والثالث: السعى إلى تأمين طريق الحج الممتد من خرسان إلى مكة المكرمة عبر العراق والجزيرة العربية لتمكين حجاج المشرق من قضاء الفريضة فى أمن من عادية الأعراب وقطاع الطرق. والرابع: تأمين أطراف البلاد من الغارات الخارجية، فإلى أى حد نجحت هذه الدولة فى تطبيق برامجها الأمنية؟ وهل استمر ذلك النجاح أم لا؟

والحق أن الدولة الغزنوية استطاعت فى عصر ازدهارها فى الفترة ما بين (٣٨٧/ ٤٣٤هـ)، إثبات جدارتها بالنجاح الذى تم أيدى زعمائها الكبار، ففى مجال قمع الفتن الداخلية، وفق السلطان محمود فى القضاء على حركة التمرد والعصيان التى قام بها خلف بن أحمد والى سجستان سنة ٣٩٣هـ، وانتهى أمره بالغزل، كما تمكن من قمع حركة صاحب قصدار الذى أظهر العصيان سنة ٤٠٢هـ، وكانت فتنة أهل خوارزم سنة ٤٠٨هـ أخطرها، ذلك أن واليها أبو العباس مأمون لما أظهر الولاء للسلطان محمود الغزنوى بدون رغبة قادته وكبار

رجاله، قامـوا بقتله والتمرد على السلطان مما أضطره إلـى الخروج إليهم على رأس جيش كبير وإخماد ثورته.

وقـد اجتـهـد سلاطين غـزنة فى نشـر الأمن عن طريق الأخـذ على أيدى الخارجـين والطامعـين من أمراء أو غـيرهم، بل كـانوا يبطشون بمن يسء السـيرة ويبعث بالأمن فى رعـيتهم من من الأمـراء، فكان القتل الصلب جـزاءا لمن أخاف أمن الرعـية، كـما فـعل السلطان مسـعود الأول بصـاحب مدينى سـاوه وقم سنة ٤٢٤هـ، إذ استغل فـترة النزاع بين السلطان مسعـود وأخيه محمـد، فهاجم الرى ونهب حاج خراسان. وكان أهل هراة لا يبالون بالأحكام، ولهم ميل إلى العنف، حتى غـدا القتل عادة فيـما بينهم، ولما حكمهـا ولاة الدولة الغزنوية بسطوا الأمن بها، فسعدت بهم البلاد، حتى لقد كان أهل هراة ينظرون إلى سلاطين غزنة بعين الاهتمام، ورغبة فى العودة إلى حكمهم بعد دخوتل السلاجقة فيها. وكان أكثر ما أزعج الحيـاة الأمنية إغارات السـلاجقة البـدو على نيسـابور، وابيورد وطوس منذ ٤٢٢، على ما سبقت الإشارة إليه.

وقد اعـتنت الدولة بحماية الطرق البـرية والمنافذ التجـارية ومن اللصوص، ذلك أنه كان هناك من الغور يخـيفون المشاة فى الطريق التجارى عـبر بلاد الغور، ولما بلغت السلطتـان محمـود أخبارهم نهض غليـهم بحملة تأديبـية سنة ٤٠١هـ، قضت على مطامعهم وأخدمتهم إلى الأبد.

وكان الناس لا يحجون فرادى بسبب الخوف من قطاع الطريق، غذا لم يكن هناك من الوسائل ما يكفل لهم السلامة،مما يعـرض قوافل الحجيج للخطر، وتذكر بعض المصـادر أنه فى سنة ٤١١، ٤١٢ هـ لم يحج أحـد من العـراقيـين بسـبب استفحال خطر قطاع الطرق، فكما كان من أهل خراسان إلا أن شكوا إلى السلطان مـحمـود الغزنوى آملين منه حـمايتـهم من الخطار التى قـد تهددهم فى الجـزيرة العربيـة، فأمر بمنـاداة الناس للحج، وأسند قيادة حـجيج بلاده إلى احـد رجاله، وجهزهم بالمال اللازم للنفقة والصدقات بمكة الحاج فى سنة ٤١٢هـ، من بلوغ مكة وأداء الفريضة فى أمان من الخطر.

وقد أصبحت هذه الحسنة عادية جرى فيما بعد السلطان مسعود الأول، وقد أشار إليهـا فى خطابه للخليفة العباسى القـادر بالله سنة ٤٢٢هـ. ولعل الغزنوبين

اعتنوا بكسوة الكعبة أيضا، فقد عثر الوزير السلجوقى (نظام الملك) على الكسوة للكعبة من الديباج الصفر، لدى أحد أعيان «نيسابور» وموقع عليها اسم السلطان ابن سبكتكين، وقد أرسلها نظام الملك إلى مكة سنة ٤٦٦هـ.

كما نحجت اتلدولة الغزنوية فى حماية المجتامع من الغازات الخاريجة، فكانت هيبة السلطان محمود تطبق الآفاق، وجرت بينه وبين الدولة الإيلكخانية بما وراء النهر معاهدات على احترام االجوار، استمر مفعول المعاهدة ساريا طيلة حياته، ثم جددها السلطان مسعود الأول بعد أبيه.

كما نحج السلطان إيراهيم بن مسعود، (٣٥١ - ٣٨٠هـ) فى عقد معاهدة مع السلاطان السلجوقى ملكشاة تم بمقتضاها تأمين حدود الدولة الغزنوية من عادة السلاجقة.

ومما يتعلق بالأمن الحسبة ويقوم بها عادة الزهاد والوعاظ والفقهاء فى أنحاء البلاد، وكان للمحتسبين نفوذ قوى فى «نيسابور» لدرجة أن بعض الأعيان رفع شكوى إلى السلطان محمود الغزنوى ضد زعيمهم فسأل السلطان: وهل يأخذ شيئا من حقوق الناس؟ فأجيب ب «لا» بل كان السلطان محمود نفسه يسمح للوعاظ بالجهر بما ينكرون عليه من تصرف. وفى «هراة» لايسمع للمحتسب أمر، وأهل الرى أكثر طاعة لولاة الأمر وإجابة لنداء المحتسب.

وعلى الرغم من سريان أحكام الشريعة الإسلامية والأخذ بالأسباب الكفيلة ببسط الأمن حينذاك، فإن الأمن لم يكن ساريا على النحو الذى ننعم به الآن فى هذا العصر الزاهر، وربما يعود ذلك إلى صعوبة المواصلات، مما يحول دون سرعة ضبط قطاع الطريق، وانقسام السلاطين على أنفسهم وما يجر من تفكك المجتمع حولهم وانقسامه، وأيضا عدم إيجاد وسائل أمنية أكثر ضبطا وملاحقة للمخالفين فى ذلك الوقت.

ب - النوازل الأجتماعية:

تعرض المجتمع الغزنوى لهزات عنيفة من القحط، وانتشار الأوبئة، والغلاء مما أوى أحيانا بحياة آلاف من السكان فى فترات زمنية، وأماكن متعددة فى البلاد، ولعل تلك العوامل وما جرته من متاعب قد حالت دون تقدم النمو السكانى فى

البلاد. ومن الجدير بالذكر أن مدن خرسان ومن بينها «نيسابور» قد تعرضت فى سنة ٤٠١هـ لفترة من الجدب والقحط الذى أهلك المزارع والمواشى، مما تسبب فى انعدام الأقوات وندرتها، وارتفاع أسعار المواد الغذائية وندرتها مما اضطر الناس أحيانا إلى «أكل الأعشاب والدم»، وأدى ذلك إلى وفاة ما يقرب من مائة ألف نسمة من السكان فى مدينة «نيسابور» وضواحيها. على أن الدولة الغزنوية قد تداركت الموقف بإنقاذ الأغذية إلى العمال فى خراسان، مما ساهم فى دفع ذلك الخطر الكبير عن المجتمع.

كما أدى عدم تطور الوسائل الصحية إلى هلاك كثير من البشر، بسبب انتشار الأوبئة، فقد تسبب انتشار مرض الطاعون سنة٤٢٣هـ فى قتل أربعين ألف شخص فى يوم واحد فى «أصفهان» وانتشر ذلك المرض فى خراسان وغرنة والرى وهمذان، وغيرها. وقلت الأيدى العاملة فى الزراعة فى بلاد الهند لكثرة الوفيات بسبب امتداد ذلك العرض إليها.

وتسبب السيول الجارفة أحيانا فى الأضرار بمصالح المجتمع فى غزنة سنة ٤٢٢ يذكر البيهقى أنه هطلت أمطار غزيرة فى التاسع من شهر رجب مما أدى إلى طغيان المياه على أجزاء من أسواق المدينة، وتسبب فى إتلافها واقتلاع قنطرة بحوانتيها المجاورة لها، وتدمير سوق الصرافين، فضلا عن المزراع المجاورة للوادى مما أضر بالسكان.

وأت الحروب الكثيرة وما أعقبته من ويلات فى هلاك أفراد من المجتمع، وارتفاع الأسعار فى الضروريات، مقابل انخفاض قيمة الكماليات، فلما كان سعر الحريب من الأرض يباع بألف درهم، نجده فى سنة ٤٣١ هـ يباع بمائتى درهم، ثم يهبط إلى ما يساوى مقدارا بسيطا من القمح مع قلة من يشترى. بينما ثمن المن الواحد من الخبز ثلاثة عشر درهما. وقد تسببت الحروب التى جرب ٤٣١هـ، بين السلطان مسعود الأول والسلاجقة فى وفاة أكثر أهل «نيسابور» ونواحيها.

ومما لا شك فيه أن آثار تلك النوازل تنعكس على الحياة الاجتماعية والاقتصادية مباشرة ويكثر الفقر وشكوى الحال إلى الولاة والسلاطين.

المظاهر الاجتماعية:

١ - الطوائف الدينية:

حفل المجتمع الغزنوى بتعدد الفرق الفكرية فى مختلف مجالات الفكر الإسلامى وضم عددا من الفرق. ولعل فرقة أهل السنة والجماعة قد سادت فى معظم أجزاء الدولة الغزنوية، فى إقليم غزنة وبست وخراسان، وبلاد الجبل. ومن مميزاتهم التمسك بنصوص الكتاب والسنة وعدم تأويلها، وهم يحاربون غيرهم من أهل العقائد الفكرية باللسان والقلم، ويؤلبون الدولة عليهم. وقد كان سلاطين الدولة الغزنوية من أتباع هذا المذهب ويحاربون الغلو فيما عداه، وأخذوا بناصر أصحاب هذا المذهب فى دولتهم طيلة فترة حكمهم. ويرى بعض المستشرقين أن هذا المذهب كان يلائم طبيعة عقول الأتراك البسيطة لوضوح ذلك المذهب وينتشر المذهب الشيعى فى أجزاء متعددة من البلاد الغزنوية فى الهند وخراسان خاصة مدن «نيسابور» و«طوس» وبلاد الديلم، وأهل مدينة «قم» باصفهان شيعة خلص يعلنون عدم قبولهم بغير لولاء للأئمة الشيعة، ويذكر المقدسى أنهم كانوا لا يصلون فى الجامع حتى أرغمهم الوالى على ذلك، ومن ظريف ما يذكر أنه بلغ من تشيعهم الإكثار من ألقاب العلويين مثل «أبو جعفر» وتحديا للشيعة عمد أهل أصفان إلى التقلب ب«أبو بكر، عمر، عثمان» مما لا يمكن استعمالهمن أهل «قم» على الإطلاق. ومما يميز الشيعة التزامهم بأسماء أئمتهم مثل «أبو جعفر» «أبو الحسن»، الحسين، زين العابدين» وغيرها واصبحت عادة فيمن يسمى ابنه.

وأخطر فرق الشيعة: الإسماعيلية، ومنهم الباطنية، التى انتشرت فى إقليم الجبل، وكان لها عدد من الدعاة فى الرى، لكن السلطان محمود الغزنوى قتل من ينتمى إليها. وكانت هذه الفرقة قد أسست لها فى خراسان بعض المؤيدين إلا أن السلطان محمود قضى عليهم أيضا. أما الإسماعيلية فقد انتشر دعاتها بكثرة فى إقليم السند، وكان يتزعمها هناك فى القرن الرابع صاحب مدينة «الملتان» ويذكر المقدسى أنه يهوعلون فى الأذان»، وقد قضت عليهم جيوش الدولة الغزنوية، وعلى الرغم من ذلك فقد امتد تأثيرهم فى الهند منذ ذلك التاريخ للآن.

أما الخوارج فقد انتشروا بكثرة فى نواحى «هراة» ومعظم إقليم سجتان»

وأجزاء من إقليم كرمان، وإقليم مكران، ويعرفون هناك باسم «الشراة»، وكان لعم طرق فى المعاملات تقوم على العدل مع الغريب سواء أكان من اتباع مذهبهم أم من غيره. وعادة يفتخرون بأنهم خوارج، وأنه لا ظلم بينهم، ولا يظلمون أحدا، ولا يدينون بالولاء لأحد، ومن عاداتهم إلغاء لامنابر فى مساجدهم، ولا يتركون النساء يخرجن من البيوت نهارا وإن كان هناك حاجة للخروج خرجن ليلا. وقد سارت هذه الفئة فى التعايش مع المجتمع الغزنوى بحيث لم تظهر أى نوع من الشغب وكانت ترضخ لوالى الولاية فى سجستان أو مكران.

وفى مجال الفكر كان هناك عدة طوائف من المعتزلة، ففى إقليم الجبل «اصفان» والرى، وهمذان «امتد تأثير فرقة التجارية، والزعفرانة، الذين يتفقون فى بدأ القول بخلق القرآن، غير أن السلطان محمود الغزنوى حينما فتح ذلك الإقليم أمر بحرق جميع كتب الفلسفة والمعتزلة، والقضاء على أفرادها.

وكان أخطر تلك الفرق طائفة «الكرامية»، فقد اتخذ علماؤها من الزهد وإظهار التعبد وسيلة إلى قلب السلطان محمود الغزنوى، ولم يظهروا له حقيقة مذهبهم. وقد ملأت هذه الفرقة بلاد خراسان وما وراء النهر وغرنة. وكان زعيم طائفة الكرامية فى ذلك الوقت أبو بكر محمد بن محمشار، الذى ارتقى إلى مرتبة المستشار الدينى للسلطان محمود لا تنفذ مشورة إلا برأى ها الإمام، وقد استغلت هذه الفرقة مساندة السلطان لها فعملت على إيذاء فرق أهل السنة والأشعرية والشيعة فى نيسابور، مما كان له أثر بالغ على تلك الفرق. غير أن ذلك النصر لم يدم طويلا بسبب تورط الزعيم «ابن محمشار» فى قضية دينية مع القاضى الحنفى «صاعدين محمد (أحد ثقات السلطان أيضا، مما غير رأى السلطان محمود فى الكرامية ولم تحظ بعد ذلك بالقبول.

وكان التنافس على أشده بين مذهب الشافعى والمذهب الحنفى، وكان المذهب الحنفى سائدا فى غقليم المشرق وليس فقط فى الدولة الغزنوية، بل تعدى إلى بلاد ما وراء النهر، واهل غزنة يدينون لمذهب أبى حنيفة أيضا، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن مرجع ذلك هو أن أبا حنيفة كان من أصل أفغانى. ويعتبر مذهب الشافعى حينذاك المذهب الوحيد المنافس للمذهب الحنفى فى إيران والهند وما وراء النهر، بل لقد بدأ يستقطب بعض رجال الفقه الحنفى إليه، الأمر الذى أدى أحيانا

إلى التنازع بين الفقهاء واحـيانا يثور العام لجل ذلك. وأكثر فـقهاء الغزنويين على الصعيد الرسمى من أتباع مذهب ابى حنيفة، وقليل منهم شافعية ولا مجال للأخذ بصحة القصـة التى أوردها بعض المؤرخين والتى يقال إنها كانت السـبب فى انتقال السلطان حمود الغزنوى إلى المذهب الشافـعى بعد أن كان المذهب الحنفى، فالقصة إن لم تكن موضوعة أساسا فهى أقرب إلى الوضع.

على ان المجتمع الغزنى قد اكتوى بنار الطوائف المتعددة، فقد صارت التهمة بالنزعة الطائفية على شخص ما وسيلة لتـدميره، واحيانا يتهم بها ذو مال وغنى مما يضطره إلى افتداء نفسه بما يفرضه عليه الحاكم. وكما هو الحال من استغلال زعماء الكرامية لمركزهم السلطان فرموا الناس يتهم فساد الاعتقاد.

٢ - الرفيق:

تزايدت أعـداد الرقـيق فى قـصور «غـزنة» يومـا بعـد يوم، وذلك بفـضل الحملات العسكرية التى قام بها حكام «غزنة» الأوائل من «بنى سبكتكين» وقد بلغ من كثرة الرقيق فى بعض الأحـيان انخفاض قيمة الرقيق الواحـد إلى ما بين عشرة دراهم إلى درهميـن. والطريق الثانى لجلب الرقـيق كان يتم عن طريق التـجارة به فكان «النحاسون» أو تجار الرقيق يجلبونه من جهات بعيدة إما من الهند أو من بلاد الترك والصقالبة وغرها، وكانت أسواق «خوارزم» و«نسابور وبلخ» و«مرو» و«هراة» و«غزنة» و«المنصـورة» من البلاد الغـزنوية مصادر لاقـتناء الرقيق. وأغلى عـادة ما يجلب من بلاد الترك، وأحـيانا يقوم تجـار الرقيق بتعـليمهم وتدريبـهم على اللغة المحلية ليرفعوا بذلك من أثمانهم.

وقد شارك الرفيق بين أفراد المجتمكع الغـزنوى، فى مختلف مجالاتع الحياة الاجتماعية المتعددة، وكانة منهم من لعب دورا فى الحياة السياسية. وقد أدى الترف الذى وصل إليه المجتـمع الإسلامى فى القرن الرابع الهجـرى فى العالم الإسلامى عامة، وفى الدولة الغزنوية خاصة إلى اقتناء الرقيق أيضا فعنمد السلاطين والوزراء وكبـار الدولة والأغنياء إلى اقتناء الرقـيق الرقيق حتى جاوزت أعـدادهم المئات فى قصور السلاطين والأمراء، وةكان من الرقـيق نوع يعرف بالخصى، ويؤتى به لخدمة نساء القصور والكـبراء. ويقوم الرقيق بالخدمات العامـة فى القصور والمنازل، وفى الحملات العسكرية ويذهب البعض إلى أن سر الإكثار من الرقيق فى صفوف الجند

يرجع إلى عدم رغبة القواد فى خروج النساء مع الحملات الحربية، وكان أصحاب المحلات العامة فى المدن كالفنادق والحانات يستخدمون الرقيق فى تلك المرافق ليقوم بخدمة النزلاء، وكذلك فى المجالس الخاصة لبعض الأفراد فى «نيسابور» وغيرها، فكانوا يشرفون على خدمة الضيوف، فى إعداد مجالس الطعام والشراب، ويقوم بعضهم بتقديم الشراب للضيوف، إلى غير ذلك من انواع الخدمات.

وربما كشف بعض الفضلاء والأدباء أحيانا قناع الحياء فى التشبيب والغزل بعض غلمانهم وافتتنوا بهم، ويبدو أن أولئك الغلمان الذين يقومون بمجالس الشراب كانوا يبدون من ألوان الدلال على جمالهم ما يحير عقول أهل الفضل والأدب فجاءت أشعارهم وفقا لتأثير فعل الغلمان.

والذى يقرأ فى أدب تلك الفترة وخاصة ما كتبه الثعالبى فى «اليتيمة» سيقف بلا شك على مدى تهافت الأدباء ومحبتهم لرقيق المجالس وزينتها.

ويلاحظ أن الرقيق فى المجتمع الغزنوى قد ترقى إلى المناصب العليا، وكان محل كلف السلطان واهتمامه، فمثلا الأمير «حسن» المشهور بـ «حسنك» كان أحد غلمان محمود الغزنوى ومحل اهتمامه، فعلمه السلطان ونشأه كاحد أبنائه، وأوفده فى اظحد العوامن على رأس حجيج بلاده، واعتمد عليه فى السفارة لدى الخليفة حين رجوعه من الحج، ثم ولاه منصبه الوزارة حينما عزل الرئيس «أحمد حسن الميندى»، واشتهر غيره من الغلمان الذين بلغوا مناصب ممتازة فى الدولة الغزنوية.

٣ - الأخلاق:

تقدمت الإشارة إلى جوانب من هذا الموضوع لدى الحديث عن فئات وعناصر المجتمع الغرنوى، وتجدر الإشارة هنا إلى الإشارة هنا إلى إعطاء السمات العامة لسكان الأقاليم الغزنوية من حيث الطباع والميول.

وعلى الرغم من اتحاد مصدر القيم الذاتية فى اظقاليم المجتمع الغزوى، بفضل وحدة العقيدة إلا أنه كان هناك، خصائص فى طباع سكان كل إقليم، أشارت إليها بعض المصادر، منها ما هو أساسى، ومنها ما هو مكتسب:

فأهل «خوارزم» يغلب على طبعهم الكرم والبشاشة، والثقة فى الدين ومحبة العلم، وكثرة الأسفار، والغة المتميزة عن لغة الخراسانيين، والنهمة فى الطعام، وطابع الجد فى أعمالهم ومعاملاتهم. وأهل خراسان، أكثر تعدادا، أهل بأس وقوة، وفيهم الظرف والبلقة فى المعاملة، وميل إلى التفقه فى الين ومعرفة العلوم النظرية والتطبيقية، ومحبة للأدب، ومنهم أهل «نيسابور» ويغلب على طباعهم الخفقة والطيش، ولعل ذلك عائد إلى ظرفهم وحبهم للأدب. وأهل «بلخ» لهم رزانة عقول، وعزم وثبات فبى المواقف، ومتانة فى الراى. وأهل «مرو» يميلون إلى الظرف والأدب ومحبة المزاح وحب للعلم أيضا. ويكثر الطيش والتسرع فى طباع أهل طبرستان، بينما تغلب المرؤة التسامح والشهامة على أهل جرجان. أما الهنود فهم أهل هدوء فى الطباع مع ميل إلى المعرفة والتفقه. ولأهل (غزنة» ظرف ومرؤة ورغبة فى العلم مع الجد والمثابرة، ويظهر العدل والإنصاف فى غرشتسان. وأهل الرى لهم أخلاق كريمة وحسن معاملة مع ميول إلى العلم والفقه، وفى سجستان النجدة والمرؤة والإنصاف وحسن المعاملة والكرم «ما فى الدنيا سوقة أحسن منهم معاملة ولا أقل منهم مخاتلة» وجرت عادتهم على عدم قتل «القنافذ» مع كثرتها، لاعتقادهم بأنها الثعابيين التى تزخر بها منطقتهم.

٤ - العادات الاجتماعية:

حفل المجتمع الغزنوى بألوان شتى من العادات، منها ما هو عام ومنها ما تميز به إقليم عن آخر. فمن عاداتهم الاحتفال بعيدى الفطر والضحى، ويأتى عيد الفطر فى نهاية كل شهر رمضان كما هو معروف، وكانوا يرقبون هلال شوال بكل عناية، حتى إذا حل أول يوم من شوال وهو أول أيام العيد، أظهروا الزينات فى الملابس والمنازل والمطاعم والمراكب، وغيرها، ويجلس السلطان فى ذلك اليوم لاستقبال المهنئين بالعيد وتعد الموائد السلطانية فى أحد بساتين القصر، حيث يجلس السلطان ويحضر معه قواد الأفواج من الجند، ومقدموا الفرسان وكبار رجال الدولة من وزراء وحجاب وكتاب، بينما يجلس الشعراء من المائدة للإنشاد، ثم يقومون إلى مائدة أخرى أعدت للشرب حيث يجلس السلطان وندماؤه والمطربون. من حولهم يغنون بألحانهم وتوقيعاتهم على الآلات. وينقضى ذلك

اليـوم فى مـرح وطرب. ولا تكاد تخـتلف الصورة عـنها فى الاحـتـفـال بعيـد الأضحى.

ومن الأعياد كـذلك عيد «المهرجـان» وفيه يقوم الأهلون بتـيادل الهدايا كل على قدر طاقـته ويجلس فـيه السلطان للاستـقبال، ويتـقدم إليه الأمـراء والأنجال بالهدايا، وكذا يفـعل كبار رجال الدولة، ثم يجلس كل حـسب منزلته فى مجلس السلطان، وتأتى الهدايـا إلى السلطان فى ذلك العيد من أعـيان بلاده، ومن الدول المجاورة، وتكون من أخطر الأشياء فيمة. وبعـد الاستقبال يقوم السلطان والحضور إلى المائدة التى أشـرف عليـهـا بعض الغلمـان، وتشـمل على أنواع فـاخـرة من المأكولات من الدجاج المشوى على الأسيـاخ، والخصى، والبيض المسلوق وما يلزم الملوك فى عيد المهرجان من المحمـرات، ويأكلون الطعام بالأيدى، ثم يقوم الجميع عقب ذلك إلى مائدة أخرى أعدت للشراب، ويعد لهذه المناسبة نوع من المشروبات المعروفة حـينذاك ويعرف بـ «الساتكين»، ويغنى المطربون أجـمل ألحانهم، وترتسم على وجوه الجميع علامـات الفرحة ومظاهر السعد، ويستمر الاحتـفال بهذا العيد لمدة خمسة عـشر يوما. ومن الجدير بالذكر أن هذا العيـد يوافق موسم الورد فيزيد الابتهاج لأن الورد فيما يعدون ضيف لا يلبث أن يرحل بعد أربعين يوما.

ومن الأعيـاد التى يحتفل بهـا أيضا عيـد «سده» وتسميـته المصادر العـربية «السذق» وهو فى الساس من أعياد «المجـوس» إذ كانوا به منذ فجر ديانتهم، ولعل ممن جاراهم فيه الأمراء والسلاطين وكبار الأعيان، وذلك لما فيه من المتعة والترويح النفسى. غير أنه كان للعلماء والأباء فى تلك الوقت نظرة أخرى.

ومن مراسم هذا العيـد إعداد مراسمه فى الصحـراء، غذ يجمع الحطب من شجر الطرفاء بكميات كبيسرة والأخـشاء ويشكل أكواما عديدة حتى يبدو كالجبل، ويكون ذلك فى مكان جميل، ثم يرتب برنامج الـسلفطان لحضور تلك الليلة التى يحرق فـيها ذلك الحطب، فتـوقد النيران، ويطلقـون من خلالها طيـور قد بللوها بالنفط، وجنس آخر من الوحوش، ويحلو هذا المنظر للناس، ويتناولون وسط هذه المظاهر الطعام والشراب، ويستمعون الغناء. وأحيانا ترى النيران من مسافات بعيدة تقدر بالكيلو مترات.

وهناك عيد كان يحتفل به أهالى «غـزنة» فى أواخر أيام شهر شعبان من كل عام هجرى ويسمونه «كلوخ أنذار» ولعل يدل عليه، إذ هو الاستعداد لشهر رمضان المبارك.

ومن عـادات الزواج «الخطبة»، وتتم بين الـسلاطين عن طريق وفـد يرسله السلطان إلى احد الملوك، ويختار لمن يرأس الوفد عادة، أحـد الفقهاء ومعه توكيلر بعـقد الـزواج، ثم يعقـد للسلطات أو احـد الأمـراء على هذه الطريقـة، ويؤتى بالعروس. ولدى قدومـها يأمر السلطان بإظهار الزينات فثى البلد فـتزين الأسواق وابواب المدينة واماكن تجـمع العامكة، وذلك احتفاء بمقـدم عروس السلطان. وفى سائر أوساط المجتمع تتم «الخطبة» بوسـيط أيضا ويكون من الرجال أقارب الزوجة أو من إحدى النساء، ثم يتم الزواج حـسب قبول الطرفين واتفاقـها. ومن مراسم الزواج «الصداق» ويعـرف أيضا بـ «المهر» وهو عـنصر أساسى فى العـقدان ويدفع عادة «بالنقد» ويشترط أيضا كماليات أخرى من الحلى وأنواع الملابس. ومما يلاحظ على السلاطين الإسراف فى سياق المهور، يذكر ابن الجوزى أن أحد الغزنويين دفع فى إحدى بنات أمير من السلاجقة أربعمائة ألف دينار ولم ترض أمها بذلك. هذا عدا هدايا العروس وزينتها التى تعادل قـيمة الصداق أحيانا، ويلاحظ الإسراف فى تجهيز العروس من قبل السلاطين، وتتكون أدوات الزينة أحيانا من سبائك العقيان، ويواقيت الـبهرمـان وقطع من الدر والمرجان، وتخـوت الوشى والحبـر، وصوانى الذهب مملوءة من بيـضـات العنبر وأوانى مـن الفضـة، وأطيـاب الكافور والعـود الهندى، وهدايا أخرى من السيوف وغيـرها. وهذا خلاف عادة المجتمع، إذ تزف المرأة إلى بيت الرجل حيث يقـام احتفال بسـيط ووليمة ينفق عليهـا الزوج حسب إمكانياته، وفى بعض بلاد خراسان كان الأب يكدح فى سـبيل إعداد الجهاز لأبنته من نفقته الخـاصة، ومن أجل ذلك اشتكى الشاعر «الفردوسـى» من ضيق حالته. ولعل هذا يشبه ما فعلته حاليا بعض المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

وفى «غرشستان» يفرد للعريس «دست» خاص يتصدر مجلى الحفل، ويؤتى بالعريس على وجهـه غطاء خفيف من القماش، ثم يؤتـى بالنساء والمغنيات وتدق الطبول والدفوف بين يديه ويحضر نساء الجيران، والأرقاب ويرقصن بين يديه أيضا واحدة إثر أخرى فرادى ومثنى وثلاث، والزوج يتمتع بالمنظر الجميل من حوله، ثم

تاتى العـروس آخر الراقـصات وترقص بين يديـه برهة، ثم يخلو المكان ويتركـان لشأنها.

ومن مظاهر الأفراح والاحتفال فى المجتمع الغزنوى، ما جرت عليه عادتهم عندى قدوم السلطان غـلى بلد من بلدان الدولة، أو وصول رسول الخليـفة أو أى وفد خارجى، إذ يقوم أهل البلدة بتزينها، وتنصب لذلك أقواس النصر عبر أبواب المدينة إلى داخلهـا، وتقام قباب الـزبنة، فلا ترى إلا الأقواس الواحـد تلو الآخر مزينة بألوان من القماش الجميلة وكذلك القباب، وتقام المحافل للرقص الشعبى هنا وهناك، ويخرج أعيان المدينة إلى الخارج لاستقبال السلطان.

ويستـعرض الجند فى ميـدان خاص. وغذا كان أعـيان الضيف أحـد الوفود كزفـد الخليفة مـثلا فإن الـلطان يأمر بتزين البلد ثـم يخرج مع الأعيـان، وعقب وصول الضيف، يقوم كـبار العيان والأغنياء بتقـديم النثارات من الدنانير والدراهم الكثـيرة، وقطع من الحلوى والسكر، ولا تـزال تنهال تلك النثـارات على الموكب حـتى يصل مقـره. بينما يبـقى أهالى البلد فى لأفـراحهم عـدة أيام، ولعل ذلك أظهارا للولاء والمحبة من قبل أهل البلد للسلاطين ملوك البلاد.

ومن الهدايا المعروفة والتى تقدم للضـيوف لدى المجتمع الغزنوى هدية «مزد داندان» أى «تعب السنان» ويقـدمهـا صاحـب المنزل لضيـفه على حـيب مقـدرته واستطاعـته، وهى عادة من النقـود المستعـملة لديهم، وتقدم للضـيف أيضا هدية أخرى عرفت بـ«هدية الحـمام» وهى تقدم أيضا حسب المقدرة، وقـد حصل رسول الخليفة سنة ٤٢٢هـ على مبلغ عشرين ألف درهم من الفضة وبرسم هدية الحمام، ذلك عدا هدية «النثار» المشار سابقا.

وفى حالة ختان أحد الأمراء فإنها تزين ثصور السلاطين وتحلى بأنواع الفرس المذهبة والتحف الجميلة، وتبث العطور الزكية فى جميع مرافق القصر.

واختلف أنواع الملابس والزياء فى المجتمع الغزنوى لاختلاف ظروف الأقاليم الطبيعية، وتفاضل أوساط المجتمع فى اللباس من فرد إلى آخر. وزى أهل السند، هو لبس المناطق الحارة، يسـتعملون الأرز والميازر لشدة الحـر، ويشمل ذلك معظم مناطق الهند، ويمـيل التـجـار هناك إلى لبس القـمص والأردية التى تميـزهم عن

غيـرهم. وزى أهل «بست» يشبـه العراقـيين وكذلك أهـل طبرستـان. والفقـهاء والأعيان فى لامجتمع يلبسون الطيالس من فوق الطيلسان، ولا يغطى الرأس بها، وأهل سجستان يضعون على رءوسهم عمائم أشبه بالتيجان، وانصاف العلماء بمدينة «مرو» يجعلون الطيـالس على حد الكتفين، أما ثبـات الجند فتبدو بأكمام ضـيقة، ولأهل خراسان عادات فى البس صـيفا وشتاء ويلبسون المبارز لدخـول الحمامات، أما لبس السواد فقـد انتشر ذلك الوقت فى إقليمى فارس وكرمـانم، بالغضافة إلى الطيلسان والدراريع. وأمـراء يلبسون القبـية والدراريع الواسعة العـرض والجيوب، وتختلف عن دراريع الكتاب، ويعـرف الكتاب بالقلنسوة التى تغطيها العـمامة من جوانبهـا. بينما يتباهـى الملوك والتجار فى ألوان الملابس من الطيالبس والـعمائم، والخفاف، والقـمصان، والجباب، والمبطنـات، وزيهم كزى أهل العراق., أما أهل الذمة فقـد تميزت عن سائر أفراد المجتـمع بلبس الزنانير. ومما يلاحظ على الأزياء أنها تكاد تنفق وتتقـارب فى عموم البلاد عدا الأجزاء الحارة التى تمـيل شعوبها إلى الألبسة الخفـيفة. وكان من عادة الشيوخ الطاعنين فى السن صـبغ لحاهم بالخضاب فينقلب لونها إلى الإحمرار، ولا توزال هذه العادة قائمة إلى الآن.

وقد جرت عادة الصوفيـة فى ذلك الوقت على لبس الثياب الملفوفة بالأزرق وغيره وأحيانا يلبسون المرقعة، ولعل مرجع ذلك إلى رغبتهم فى التميز عن غيرهم بإظهار الزهد والعزوف عن الدنيا. وقد أنكر بعض العلماء فعلتهم هذه.

ومن العادات التى عرفها المجتمع الغزنوى الاحتفال بختم القرآن الكريم، إذ يقام له احـتفال خـاص، ويخرج الأولاد ممن ختـم القرآن مع الأستـاذ فى موكب خاص من أفراد المجتـمع إلى مقبره البلد وهناك يتلو الطالب عند قبـر أحد أقربائه بعض آيات من القـرآن دعاء خـتم القرآن، ثم تجـرى بعد ذلك مـراسم الاحتـفال الخاص بتلك المناسبة.

وقد عرفت ألوان من اللهـو لدى أوساط المجتمع الغزنوى عـامة والسلاطين خاصـة، وكانت المجالس تعـقد لها فى ترات مـعينة ومنتظمـة، ووجدت الملاهى بسبب الرقى الاجتماعى الذى أصاب عامـة المجتمع الإسلامى فى القرآن فى القرن الرابع من جهة والاستقرار الذى نعم به مجتمع الدولة الغزنوية.

وقد شاع الغناء فى المجتمع الغزنوى وكثير عدد المغنيين، ولكنهم لم يشتهروا مثل اشتهار مغنى العراق، ولعل اكثر المغنيين والمغنيات من الرقيق، وكان الملاهى فى «غرنة» و" نيسابور" بمثابة مدارس ينشأ فيها الغناء، وقد اشتهر من مغنى السلطان مسعود الأول "عبد الرحمن القوال"، ومن النساء "ستى زرين"، التى كانت تشهدوا بألحانها لذلك السلطان وأهل قصره.

وقد لقت عنده حظوة كبيرة، حتى أصبحت تمثل حاجبه المختص بشئون الحريم.

ومن ألوان اللهو تلك المجالس التى كانت تعقد للشراب بصفة شبه يومية، وخاصة فى حياة السلطان مسعود الأول، وقد تحدث عنها البيهقى، وبين إلى أى حد

بلغ كلف السلاطين بها ودواعى ذلك، ويبدو أنهم كانوا لا يرون فى إظهار ذلك أدنى حرج، ولا ندرى إلى أى حد كان موقف رجال الدين من الفقهاء قد تمادى فى احتساء الشراب حتى يزول إذا عرفنا أن " ابو بكر الحصيرى" وهو من الفقهاء، قد تمادى فى احتساء الشراب حتى جاوز السكر. ولعل رجال الدين المعتدلين لم يقبلوا بذلك الواقع، ولم يعمدوا أيضا إلى غثارة مثل هذه القضايا، ما دام الدولة قد تم لها فتح أجزاء كبيرة مكن الهند ونشر الإسلام، وما دامت لا تزال فى عنفوان قوتها، أما وقد بدت قوة السلاجقة تلوح فى الفق وباتت خطرا يهدد استقرار البلاد، فقد بدأت مظاهر الاستنكار على السلطان من كثير من العلماء ورجال الدولة، وظهر النصح فى مقالة عالم أو وزير أو قصيدة أو قصيدة شاعر.

وقد اتخذ السلاطين من منجالس الشراب أحيانا وسائل أحيانا لكشف ضمائر أقاريبهم ممن لا يؤمن جانبه منهم، وبلغ من تأثير الشرب أحيانا أن يرمى بنفسه فى جحيم المعركة من غير وعى فيذهب ضحية فعلته، كما حدث للقائد "بفراجق" فى إحدى المارك.

وتنظم مجالس الشراب عادة بعد الطعام فى النهار أو الليل، ويحضر المجلس الندماء، من وزراء وكتاب، وشعراء، ومغنين، ومغنيات، ويقوم الشراب عادة غلمان من الترك، ويفضل السلطان كونهم على درجة من الجمال، وربما فتن

أحد الندماء بجمال أحد الغلمان لكن ذلك يظهر فب نوع من الحشمة تقديرا لهيبتة المجلس، وذلك بعكس مجالس الأباء والأعيان إذ كان الشاعر يكشف فى نوع قناع الحياء عندما تأخذه النشوة.

ومن مظاهر اللهو نـزهات الصيد، ويشرف عـلى تنظيمهـا أفراد مختـصون لذلك، وكان لتلك النزهات مـوسم معين من العام، وهو فـصل الربيع، ومما يعد لذلك القيـام بحشر الـوحوش فى أماكن مـعينة للاصطياد، ويعـين السلطان وقت الخروج، ويسند تصريف شـئون البلاد إلى ثقات رجالـه فى الدولة حتى يعود، ثم يخرج السلطان إلى الصيد ومعه أفراد حاشيته.

على أن الصيد يعتبر من أنواع الرياضة البدنية الشاقة والمفيدة، وقد أفاد منها السلطان مـسعود الأول فى تسـامحه مع النـاس، ويبعث الصيـد قيم الصـبر على الشـدائد، والجلد فى ساعـة العسـرة والاعـتزاز الشـديد بالنفس، وقد كـان هذا السلطان يمارس هذه الرياضـة فى البرد القفـارس، ويصارع الأسود وحده فـإذا ما عجز نادى فى بعض رجـاله، ومما يذكر عنه ظانه قتل ذات يوم ثمتـانية من السود وأثنى عليه الشعراء فى ذلك.

وكان من أنواع الرياضة أيضـا حمل الأثقال، وهى فى العادة أحـجار ثقيلة كان الشبان يتباهون فى نقلهـا من مكان إلى آخر، وتكشف عن مدى التحمل لدى الفرد. ومنهـا المصارعـة، والمبارزة التى يتـدربون عليها فى ذلـك الوقت، وألعاب الصولجان، ظغلى غير ذلك من اظنواع الرياضيات الأخرى.

وتظهـر عادات الحـزن عند وفاة الميت ويشـيع جنازته مجـموعـة من الأهل والأصدقاء والمعارف، أما إذا كان أحد العلماء البمشهورين فإنه يشيع جتمانه أعداد كبيرة من البـشر، ويتقدم الرجال عادة أمام الجنازة ويسيـر النساء من خلفها، وفى بعض البلدان كنيـسابور مـثلا يخـرجن النساء ويبكين الميت، ويكثـرون من النواح أحيانا، بينما يكتفى البعض بخروج أهل الذكر خلف الجنازة يهللون ويرتلون بعض التواشيح الدينية.

أما النصارى فيعيشـون موتاهم بالنواحى، ودق الطبول ونفخ الزمور، ويسير الرهبان فى المقدمة ويليهم حاملوا الصلبان والشموع ومن خلفهم بقية المشيعين.

وقد جرت العادة فى المجتمع الغـزنوى بالجلوس للعزاء ثلاثة أيام يلبس فيها الثياب البيض كـما فعل المير مسعود الأول عند وفاة أبيـه. أما إذا كان المتوفى أحد العلماء، أقيمت مـراسم العزاء فى منزله، فإذا كان يقوم بالتدريس فى حـياته فإنها تقام فى المدرسة التى كان يعمل بها.

هـ - دولة الأتراك السلاجقة وبلاد التركستان وأواسط آسيا

إن حركة التريخ فى آسيا الوسطى منذ أول عصوره تتاثر إلى حد بعيد بالدور الذى تلعبه القبائل التركية التى تشكل النسبة العظمى من سكانه. وإن كان ذلك لا ينفى وجود بعض الـعناصر القليلة العدد كـالفرس والأفغـان فى هذه المناطق لكن الأتراك كانت لا ينفى وجود بعض العناصر القليلة العدد كالفرس والأفغان فى هذه المناطق لكن الأتراك كـانت منازلهم فى الـسهـول الواسـعة بين نهـرى جـيحـون وسيحوب وبحر الارال وصولا إلى سيبيريا والتى تمتد من حدود الصين وتمتد غربا حتى شواطئ بحر ريجزر (قـزوين) وقد ظلت هجرات هؤلاء الأتراك إلى شواطئ جيحون لا ينقطع سبيلها صوب الجنوب الشرقى خصوصا إقليم ضجتمد وتركستان الشرقية، وكان السلاجقـة جزء من هذه الشعوب التى تنسب إلى الترك الذين كانوا يقيمون فى الصحراء الواسعة الشاسعة التى تمتد من حدود الصين حتى شاطئ بحر قزوين وكثرت هجرتهم إلى شواطئ جيـحون خصوصا فى وقت من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين وكثرت هجرتهم إلى شواطئ جيحون خصوصا فى وقت انهيار الدولة السامانية.

وتذكر المصـادر أنه فى الفترة بـين عامى (١٠٤١ - ١٠٤٢م) طلب الأتراك الذين كانوا لا يـزالون على الوثنية، والذين كـانوا يعيشـون فى هضبـة التبت من أرسلان خان بن (قدر خـان) أن يسمح لهم بالاستقرار فى ممتلكاته لما سـمعوا عن عدلة وسعـة صدره ولين حكمة ولكنهم لما قربوا إلى عـاصمته أرسل إليـهم كتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام ومن ثم دخلت أسـرة تركية مكونة من عشرة آلاف الدين الإسلامى فى العام التالى ١٠٤٣م، ولقد كانت غزوة (قوة ختاى) Karaa Khitay فى بلاد التركسـتان عاملا التركتـان عاملا قويا على انتشـار الإسلام، ومن ثم كان

لدخول الأتراك السلجوقيين فى الإسلام أهمية عظيمة ويبدو أن سلجوق جد هؤلاء القوم كان أحد أبناء ملك الخزر جنوب روسيا وهى هجرة تركية من القبائل التركية المعروفة بالغزو ولقد كان لاعتناقهم الإسلام أنهار الحاجز الذى كان يفصل بينهم وبين الأمة الإسلامية بل بينهم وبين التاريخ العالمى إذ بدأوا يمدون العالم الإسلامى بقوة جديدة ويعطونه حيوية كبيرة بعد أن دخلوا بطونها فيما بين قلب الصين شرقا وشواطئ البحر البيض المتوسط غربا وفيما بين بحر آرال الاستيلاء على منطقة من أخصب مناطق التركستان وهى بلاد ما وراء النهر وكان السلاجقة قد اظهروا نشاطا ملحوظا فى الجهات التى هاجروا إليها فقاموا بالزود عنها ضد خطر الترك الوثنين واشتركوا فى الدفاع عن ديار الإسلام مع السامانيين وفرصض السيادة على بلاد ما وراء النهر وقد تمكنوا من خلال هذا الصراع السيطرة على المنطقة الخصبة فى بلاد ما وراء النهر وكانت رحلاتهم من بخارى وسمرقند ولقد أطاعتهم عشائرهم ولما خشى أمير بخارى بأسهم لجأوا إلى ملك التركستان (نصراخان) لكنهم عادوا مرة أخرى إلى السكن بالقرب من بخارى وكان السلاجقة قد تحالفوا ما أمير بخارى ضد محمود الغزنوى حيث وقف زعيمهم (أرسلان بن سلجوق) مع هذا المير لكن الأخير غدر بهم وقام بالهجوم عليهم فى قوة ساجقة عند الشاطئ الأيمن لنهر جيحون بين بخارى وخيوة خوفا من بطش أمير بخارى.

ولم تكن هزيمة السلاجقة بسبب ضعف أسلحتهم بقدر ما كانت لما دبره الخوارزميون من مكر وخداع ذلك أن أمير خوارزم تظاهر أول الأمر بصداقته للسلاجقة ولم يتوقع يحتاج السوء بعد ذلك إذ كانوا يعلمون بعداء أمير خوارزم للغزنويين فظنوا بذلك أنه يحتاج إلى مساعدتهم لكنهم اضطروا إلى ترك ذلك الإقليم الذى يقع بين جيحون وسيحون ونزحوا إلى خرسان حيث قدر لهم أن يعيشوا فى أرض فارس القديمة وكان السلاجقة هم أول قوم من الترك استقروا عند حدود إيران (فارس) الشمالية الشرقية كما هو معروف ومشهور فى عام عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م ظهر السلاجقة عند مدينة مرو هى الأراضى التى تعيش عليها التركمان اليوم وكذلك إلى جوار مدينة نسا (النسائى) وابيورد وهى المنطقة التى انطلقوا منها إلى خرسان. غير أطماع السلاجقة لم تتوقف عند هذا الحد بل شنوا

غارات متعددة فى إقليم خراسان. إذا كان انتقالهم إلى خراسان بداية لمرحلة جديدة من مراحل كفاحهم مما كان ذا أثر قوى فقد أخذوا يدمون قواتهم وينتشرون فى البلاد المجاورة لهم ويتحينون الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية أو اقتلاع جذورها وقد زاد خطر السلاجقة فى غقليم خراسان فوفد أهل «نسا» على السلطان الغنوى شاكين عبث السلاجقة الذين كانوا مفرطين على السلب والنهب حيث لن تتعرض لغارتهم منطقة فارس الشماتلية الغربية وحدها فحسب بل كل بقعة فى الإقليم الذى يتاخم السهول وسار السلطان مسعود الذى قاد الجيش بنفسه لكن انتهى المر إلى الدخول فى صلح مع السلاجقة، لكن قوة السلاجقة كانت ازدياد ذلك لأن سكان مروحين ادركوا ما أصاب الغزنويين من الضعف التام استجابوا لزعماء الأتراك وفتحوا لهم أبواب مدنهم وانضموا تحت لوائهم وكان انتصار السلاجقة على الجند الغزنوى قد أدى إلى ارتفاع مكانتهم وزادت أطماعهم فى ممتلكات الدولة الغزنوية ومن ثم ظل السلاجقة والغزنويين فى الدفاع عن هذه البلاد ووقعت فى رمضان ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م معركة حاسمة بين السلاجقة والغزنويين هزم فيها الغزنويون هزيمة تامة.

وبذلك وضع السلاجقة أيديهم على كل إقليم خراسان الذى يعد قاعدة كل العمليات الحربية فى آسيا الإسلامية وأعلنوا قيام دولتهم التى ضمت بلاد ما وراء النهر هذه المرحلة امتد نفوذهم على كل أقاليم فارس وأزالوا حكم البوهيين وكذلك الغزنويين ولقد تحمس السلاجقة تحمسا شديدا للدعوة الإسلامية ومالوا إلى مذهب السنة والجماعة لأنهم دخلوا الإسلام على المذهب السنى وقد انعكس ذلك فى تصرفاتهم يظهرون الولاء للخليفة العباسى (أمير المؤمنين) قد استقبل قائد جموع الترك هذا استقبالا حافلا لأول مرة عام ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م وكان هذا الأمير السلجوقى (طغرل) قد ظهر فى بغداد كتابه متواضع من خدام الخلافة. ثم خلفة ألب أرسلان بن طغرل بك وقد استأنف هذا الفتح فى همة ونشاط وكان ألب أرسلان هو اول زعيم تركى قاد فرسانالترك عبر الفترات وأخضع أراضى غرب آسيا وظل الجنس التركى يعيش فى هذه المنطقة حتى كتابة هذه السطور ولا يزال بحكم وتكونت تركيا الحديثة. وهكذا بسط السلاجقة ووطدوا نفوذهم فى هذه

الأقاليم لكن نفوذهم كـان أقوى فى بلاد النهر حيث أحـيهم الناس لما أظهروه من التمسك بأهداب الدين والغيرة على الإسلام والتقرب من علماء الدين.

وقد توسع حكم السـلاجقة فى عصـر ملكشاه بن ألب أرسلان شرقـا حتى وصل إلى فرغانه (طشغند) لاسيما أن ملكشاه كان معصرا لحكم (خضرخان) الذى كان يحكم فى تركستـان. ولن كانت بخارى وبلاد أواسط آسيا لاسيما الـتركستان الغربية قـد اعترفت بسيـادة السلاجقة على هذه الأقاليم إلا أن الـقسم الشرقى من بلاد ما وراء النهر لم يتـعرف بسيـادة هؤلاء الأمراء السلاجقة الذ ين كـان مركز حكمهم وسلـطانهم فى خرسان، لكن السلطـان سنجر كان يدرك حـقيقـة فرض نفوذه على هذه الأقاليم الشـرقية والذى كان يرى فى خراسـان والجزء الشرقى من العالم الإسـلامى أحب البلاد إلى نفسه ومـن هنا سار هذا الأمير السلجـوقى عام ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، لفـرض نفوذه على سـمرقـند والأقاليم المجـاورة لها وإرغـام حكامهـا على الدخول فى طاعته واسـتطاع سنجر أن يبسط النفوذ السلـجوقى مرة ثانيـة على بلاد مـا وراء النهر، لكـن لم تمض إلا بضع سنوات حـتى كان (عـام ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م) وقد أعلنت سـمرقند خروجـها على الدولة السلجوقـية، لكن الدخـول فى صـراع فى تلك المناطق قـد أدى على القـضـاء النهـائى على نفـوذ السـلاجقـة ببلاد مـا وراء النهـر. وقد كـان سنجـر من أهم حكام خرسـان ومن السلاطين العظام وقد كان على خراسان وما وراء النهر.

وقد كان سنجر من اهم حكام خرسـان ومن السلاطين العظام وقد كان واليا على خرسان وما وراء النهر فى عهد كل من أخوية يركباروف بن ملكشاه.

وقـد ظل سنجر أخـوى ملكشاة فـى بلاد ما وراء النهـر وخراسـان يحكم الأقاليم الشرقية فأطلق على السلاجقة الذين يمثلهم سلاجقة خرسان وقد قام بعده فتوحـات فى بلاد ما وراء النهر ففتح ترمـذ وطخارستان عام ٤٩١هـ وضـمها إلى ملكة كما استطاع أن يبسط نفوذه على إقليم ما وراء النهر عام ٤٩٥هـ وبلغت قوته حدا جعلته يتقدم نحو مدينة غزنه ويستولى عليها بعد هزيمة ملكها (أرسلان شاة) الغزنوى عـام ٥٠٨هـ. غير أن الحـروب لم تنقطع فى عهد سنجـر وكانت أخطر الحروب بينه وبين دولتين قوتين نشأتين وظهرتا على مـسرح الأحداث السياسية فى

بلاد المشرق وهما الدولة (القرة خطائية) والدولة الخوارزمية وهذه الأخيرة هى التى انتهت حكم السلاجقة فى المشرق.

وكانت قبائل (القرة خطاى) يحكمها كرخان قدر قدم من داخل الصين الشمالية وكان قد تابع رحلته حتى استقر فى السهوب الشرقية ومن نزل فى مدينة أيميل وفرض سلطانه على الإقليم الذى يعرف باسم (ختاى) ثم هاجم كاشغر وخنن ثم بدأ يتحرك غربا فى اتجاه فرغانه (طشغند) وبلاد ما وراء النهر. وهناك خاف سنجر من تزايد قوة جارة الشرقى فى هذا الإقليم لاسيما بعد أن عظم نفوذ الدولة حتى أخضعت القبائل التركية التى كانت تعرف باسم (القوغيزة) ثم أخذت فى الاغارة على البلاد الإسلامية فى عام ٥٢١هـ - ١١٢٦ وقامت بعده أعمال مدمرة حتى أخذت أصيب الناس بالذعر واستنجدوا بالسلطان سنجر.

وكان الإقليم الواقع إلى الشمال (الضرقى خوقند) موطن قبائل (القبجاق) (والقرة قرغيز) وكان سنجر قد أثقل كاهلهم بما فرضه عليهم من الخراج. لكن شيوخ هذه القبائل استنجدوا بكرخان القادم من شمال الصين الذى استجاب لهم وسارع بغزو بلاد ما وراء النهر عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١.

ولم يجد سنجر بن ملكشاة بدأ من قتال هذه القبائل فتوجه بقواته إلى ما وراء النهر عام ٥٢٥هـ ولما أحس هؤلاء بقوة سنجر وأرسلوا إليه يعتذرون ويتعهدون بالطاعة والخضوع له.

ولكنه صمم على استئصالهم فنازلوه مستميتين بقادة (كرخان) الذى استجاب لهم وسارع بغزو بلاد ما وراء النهر عام ٥٣٦هـ/ ١١٤١م واستطاعوا أن يلحقوا به هزيمة منكرة فى موقعه عند قطوان بالقرب من سمرقند حيث ركن بعدها إلى الفرار تاركا وراءه بزوجته أسيرة ونساءه وكل متاعه فلم يصحبة إلا ثلثمائة من رجالة عبر بهم نهر سيحون فى مشقة بالغة وقدرت خسائر السلاجقة فى هذه المعركة بثرثين ألف رجل.

وقد كانت معركة (قطوان) حدا فاصلا بين عهدين من سلطنة سنجر عهد القوة وسعة النفوذ وعهد الضعف والانهيار فقد كانت ذات آثار خطيرة فى تاريخ السلاجقة، لأن بهذه الهزيمة انتهت إلى غير رجعة شهرة سنجر العسكرية وهو

الذى كانوا يعـدونه يوما ما الإسكندر المقـدونى الثانى وضاع مع هذه المعـركة كل نفوذ السلاجقة ببلاد ما وراء النهر.

وتوالت المصائب على سنجر بعد هذه الهزيمـةوكتب عليه أن يركبه العار إذ سـقط أسيـرا بأيدى بدو التركـمان عند مـدينة (لندخـوى) فأمـضى عندهم ثلاث سنوات فى شقـاء وبؤس ولكن أفلح فى نهاية الأمر فى الـهرب من مجسـة ووفاة أجله فى السادس والعـشرين من ربيع الول عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٨م وخلفة مـحمود خان ابن أخـيه فحكم سـشت سنوات من بعده، لكن خـان كاشغـر دبر له حيلة لقضـاء عليه. ومن ثم قوى أمر الخـاطائين وأخذوا يمدون نفـوذهم على إقليم ما وراء النهر وكـاشغـر ووقعت فى أيديهم سمـرقند وبخارى وتعـهد الخـانيون بدفع الخراج لهم، وبهذا صاروا خطرا جسيما يهدد سلاجقة المشرق.

ولقد كـان من نتيـجة انهزام سنجـر فى موقـعة قطوان أن تجرأ عـليه الدولة الخوارزميـة فتمردوا عليـه ومنذ ذلك الوقت أخذ نجم السلاجقة يـقل تدريجيات. ذلك لأنه فيما كانت خـراسان نفسها سقط جزء منها بأيدى الخـوارزميين واستولى أمراء الغـور (بلادهم فى القسم الشمالى فى بلاد الافـغان الحالية) علـى جزء آخر وهكذا كان مكرخـان قد ثبت سلطان على الجزء الأكـبر من فرغـانه وبلاد ما وراء النهر.

وهكذا انتهى حكم أول أسرة تركية فى بلاد ما وراء النهر.

فهـؤلاء السلاجقة وهم أنفـسهم من الترك يتـفاخرون بما استـولوا عليه من أراضى آسيا الغربية ويرون فـى ذلك الغقليم الصغير على جيحون غـير باهتمامهم فى الغالب.

وقد حكم أعظم أمرائهم (السلاجقة) فى تلك الحقبة من الحضارة التى بدأت باللغة الفارسية تزاحم العربية كلغة الأدب.

وإذا كان السـلاجقة من أعـظم رعاة الشعـر والعلم فقد رأيـنا لذلك طغرل وملكشاه وسنجر جميعا يعـملون على إحياء اللسان الفارسى ولم تكن هذه الأسرة الحاكمة تستخدم اللغة التركية لا يوصفـها لسان الحياة العامة وكانت هذه اللغة تعتز بدورها بنهضتها الأدبية فى قسم أخر فى آسـيا الوسطى وذلك فى تركستان الشرقية

حيث نجد عند أمراء خوارزم الترك والأمـراء الأقطاعيين الأقوياء من مدمن بلاد ما وراء النهر. ذلك أنه بالرغم أن الحكومة كانت كلها فى الغالب بأيدى الترك إلا ان السكان الترك المستقرين. هناك كانوا على قلة عددية نسبية.

وهكذا أدى السـلاجقة الأتراك دورهم فـى العالم الإسلامـى وبلاد ما وراء النهر بالقـدر الذى جعلهم لا يولون هذه المناطق موطـنهم الأول القدر الكافى من الاهتمام حيث كان نجاحهم فى غرب آسيا وسيطرتهم على إقليم واسعة جعلهم لا يلتفتون إلى هذه المناطق وأن كان السلطان سنجر بن ملكشاه قد أبدى اهتماما بهذه المناطق حتى سقطت دولتهم عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٤م.

و- الدولة الخوارزمية وبلاد النهر (التركستان)

ظلت بلاد مـا وراء النهر ومناطق آسـيا وبصـفة خـاصة العـاصمة بـخارى وسمرقنـد تتعرض طوال الزمن للخطر بسبب أطمـاع جيرانها فى الـشرق والغرب وكانت تلك المنطقة طوال الفترة التى انتهت بسقـوط السلاجقة وحتى الغزو المغولى منطقـة نزاع بين كرخان الاوبـغورى شمـال الصين فى الشـرق والخوارزمـيين فى الغرب ونحن هنا نحتار الحديث عن الخوارزمـيين وتاريخهم بالقدر الذى تسمح به طبيعة البحث هذا دون توسع نظرا لاتصالهم الاتصال المباشر ببلاد ما وراء النهر.

وكانت خـوارزم فى زمن السلاجـقة مـجرد من أقاليم الدولة وتـخضع فى إدارتها لطندا وقد أقطعـها ملكشاه بن ألب أرسلان لقائده (توشـتكين غرجه) ولذا أسس الدولة الخوارزمية هذا التركى (توشيكين) وكان أحد كبار قادرة بركباروف قد اختـاره ليكون حاكمـا على إقليم خوارزم ولقبـه خوارزمشـاه عام ٤٩٠هـ وتعنى خوارزمشـاه ملك الخوارزم ومن هنا فقـد أخذت الدولة تظهر على مسـرح التاريخ تدريجيا ولو أن ملوكهم تظاهروا بالخضوع والطاعة للسلاجقة.

وبعد وفاة توشتكين خلفة ابنه محمد قطب الدين الذى حكم خوارزم ثلاثين عام (٤٩١ - ٥٢١هـ/ ١٠٩٦ - ١١٢٧م.

وعندمـا بدأ نجم السـلاجـقـة فى الأفول لـم يعد هـو وغيـره من الأمـراء الأقطاعيين يدينون لهم إلا بالولاء الاسمى.

وقـد أسند السلطان السلجـوقى سنجر بن مـلكشاه ولاية خـوارزم إلى ابنه الحاكم (علاء الدين انز) بعد وفاة ابنه محمد قطب.

فمد ظلال الأمن وأفاض العدل وقـربه السلطان سنجر وظل على وفاق معه وكان يصحبه مـعه فى حروبة وظهرت كفايته حيث كـان كفؤا واسع الأطماع ومن ثم عمل فى الوقت نفـسه على الإفادة من ازدياد قـوته ليتحـرر من سلطان سنجر حيث إنه لما اطمـأن إلى قوته حـاول أن يجعل دولته مـستقلـة استقـلالا تاما عن السلاجقة وعمل على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السلجوقية المتداعية.

ولقد خرج الأمير علاء أنز على السـلطان سنجر ثلاث مرات وغزا خراسان وكان سنجر يعفو عنه كل مرة فى سماحة تامة وكان قد ثار عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م واستطاع أن يضم الهضـاب الواقعة فى أسفل نهر جـيحون إلى ملكه وبذلك بدات مرحلة جديدة من النزاع بين السلاجقة والخوارزميين.

ولقد كان سلوك الخوارزميين هذا من الخطورة بمكان ذلك أنهم بغارتهم تلك فإنهم مهدوا السبيل لعدو ثالث مشـترك لتحقيق أهدافه وكان هذا هو كرخان الذى استولى على كل بلاد ما وراء النهر بعد أن هزم سنجر بن ملكشاة ثم يسير من بعد ذلك فـرقا من جـيشـه غزا بهـا خـوارزم وأنزل بها ضـربات شديدة ثم عـاد إلى سمرقند.

وكانت كثـرة الحروب التى خاضهـا سنجر للدفاع عن حـدود دولته وصون نفوذه وإقرار هيئة السلاجقة هدت قوته وقلت من شوكته حقيقة أنه انتصر فى أكثر هذه الحروب ولكن انكساره أمام الخطائيين وضياع إقليم ما وراء النهر من بعده كان ضربة قـوية وجهت إلى الدولة السلجـوقية ولكن دخـول (كرخان الصـين) جعل جـهـود (علاء أنز) الخـوارزمى تذهب ادراج الرياح ومـن ثم اضطر إلى أن يدفع الجزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دينار لكن الدولة الخـوازرمية نفوذها على البلاد التابعة للسلاجقة.

ولكن علاء أنز أمـير الخوارزم مات عام ٥٥١هـ/ ١١٥٦م فـخلفه ابنه (ابل أرسلان) حـاول أن يتخلص من عبء (كرخـان الصين) ولكنه فـشل أبوه من قبل وفى تلك الحالة بعث عليـه القوم وقيادتـها فى بلاد ما وراء النهر بوفـد منهم عام

٥٥٣/ ١١٥٨م إلى (أبل أرسلان) يستنجدون من مظالم أمير سمرقند واعتدائته. ومن ثم استغل ابن علاء الدين أنز (أبل أرسلان) هذه المطالب وأسرع إلى هناك فى قوة كبيرة وفتحت له بخارى عاصمة بلاد ما وراء النهر أبوابها، لكنه لم يستطيع الاستمرار فى القتال إذ اضطر إلى الانسحاب وعاد إلى بلاده دون أن يحقق شيئا مما كان يعتزم فعله وهكذا ظلت الأجزاء الكبرى من بلاد ما وراء النهر وفرغانه على ما كانت عليه فى أيدى الاوبغور وحاكم كرخان.

لكن بعض المصادر التاريخية تعترف بأن الخوارزمين كانوا يسيطرون على مناطق بخارى الغربية وكذلك بلاد أمراء وجند قرا قول.

وفى تلك الفترة التى دامت ست سنوات استطاع (أبل أرسلان) أن يوطد حكمة فى خراسان بعد أن طرد منها آخر سلاطين خراسان وقد مهد انتشار الإسلام حتى حوض الفولوجا تكاثر جموع الأتراك عند بحر الآرال وما حوله لقيام الدولة الخوارزمية التى صار لها شأن كبير فى القرنيين الخامس والسادس وقد روج من أحوالها أن بلادها كانت أبواب التجارة التى تصل ما بين أواسط آسيا والاقاليم الإسلامية المتحضرة وكان الخوارزميون يعقدون آمالا كثيرة لمد نفوذهم حتى حدود الصين ومعهم حلفاؤهم القيجاف الذين أسلموا على أيديهم بدورهم فى القرن الخامس الهجرى لولا ظهور جنكيز خان.

ونفذت الثقافة الإسلامية إلى الشعوب التركية بآواسط آسيا على أيدى شيوخ الفرس المسلمين فى الغالب.

وتجدد الصراع بشأن السيطرة على أراضى بلاد ما وراء النهر بين الخوارزميين والابغور عام ٥٦٠هـ - ١١٦٤ حين اتهم الاوبغور بغزو أراضى أمير خوارزم ومن ثم انطلقت القوات الخوارزمية شركا لكن الابغور ألحقوا هزيمة بقوات (أبل أرسلان) لكن أثر الهزيمة كان قويا على نفسية أبل أرسلان فمات من أثر الصدمة فى نفس العام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م.

وأثر وفاة الأمير الخوارزمى دار الصراع بين أبناء سلطان شاة وتكتش، ودوام الصراع من أجل الجلوس على عرش خوارزم عشر سنوات لكن فى النهاية هذه الفترة استطاع تكتش أن ستولى على مقاليد الأمور فى عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤ م

ليصبح من بعد ذلك أعظم أمراء البيت الخوارزمى وتتسع إمارته الصغيرة الواقعة عند مجرى نهر جيحون الأدنى ليضيف إليها أراضى جديدة امتدت حدودها حتى الهند والخليج العربى (الفارسى) وغربا حتى الفرات وشمال الفولجا وكانت خطة تكتش هو أن يمد نفوذه بعد ذلك صوب الغرب ليصبح من بعد ذلك قادرا على متابعة خططه للتوسع شرقا فى كل أراضى بلاد ما وراء النهر وقد تم له تحقيق أهدافه بعد أن استطاع القضاء على الإسماعيلية الشيعية الحشاشين فى حصنهم المعروف باسم (أرسلان كشا) أى مريض الأسد.

وهكذا نجح تكتش فى أن يقيم له دولة لا تقل فى اتساع رقعتها عن دولة السلاجقة الأول أو دول السامانيين وقد دامت فترة حكم تكتش بن ابل أرسلان بن علاء الدين أنز حتى العاشر من رمضان عام ٥٩٦هـ، ١١٩٩م، بعد أن حكم البلاد فترة تصل إلى ثمانية وعشرين عاما وكان قد خلفة حكم البلاد ابنه (علاء الدين محمد خوارزمشاه) بعد أن كان ما يسمى بالخطر المغولى. الا أنه من الثابت أن محمد قطب الدين لم يكن هو ذلك الرجل الذى يحقق وصية ابيه فقد كان هذا المير شجاعا من أولى العزم وقد سار على سياسة أبيه الرامية إلى توسيع حدود دولته فاستولى على معظم إقليم خراسان. ذلك لأن سكان خوارزم كانوا غالبتهم من الفرس لكن الأمراء الخرزمين كانوا أتراك أصلا إلا أن نفوسهم كانت قد أخذت تتشرب ثقافة الفرس وحضارتهم بالتدريج حتى باتوا ينظرون إلى غيرهم من الترك نظرتهم إلى الهمج زكان علاء الدين محمد قطب بن تكتش يترقب الفرصة للاشتباك مع كرخان الاوبغور.

وما أن اضطلع هذا الأمير الخوارزمى بشؤن حكومته وكانقد جمع فى حملته ما يقرب من عشرة آلاف فارس واستطاع أن ينتصر على أمير سمرقند واستطاع الاستيلاء على هراه وإقليم الغور وتم له من بعد ذلك القضاء على قنن شتى بخراسان ولقد كانت مساعدة كرخان الاوبغور سببا فى إحراز هذه الانتصارات، لكن شاة خوارزم قابل صنيع كرخان معه بعدم الاعتراف بالجميل لكن عندما ظهر رسل الاوبغور فى بلاط خوارزم عام ٦٠٦ هـ - ١٢٠٥م، ليطالبوا بدفع الجزية السنوية شعر هذا الخوارزمى علاء الدين محمد الدين وكان الحظ قد تخلى هذه المرة عن كرخان الاوبغور وهزم جيشهم هزيمة حاسمة وسقط قائد الاوبغور. ولنا

أن نتصور مدى ما زاده هذا النصر من كبرياء السلطان حتى اتخذ لنفسه لقب إسكندر الثانى وقد استبدت به نشوة الإنتصار الكبير على كرخان الاوبغور، فكان تصميمه على الاستيلاء على كل تركستان الشرقية والغربية، لكن لم يكد يبارح شواطئ سيحون حتى كان كرخان قد ظهر بجيشه عند مدينة أترار واستردوها من الخوارزميين بسرعة ثم سارع بحصار سمرقند وكان ذلك دافعا للسلطان الخوارزمى علاء الدين محمد بالإسراع بالعودة إلى بلاد ما وراء النهر وكانت عودته سببا فى رفع الاوبغور الحصار عن سمرقند والتراجع إلى الشمال وانطلق الخوارزميون فى إثر كرخان وجيشه حتى اشتبكوا معهم فى قتال ضارى عام ٦١٠هـ/ ١٢١٣م.

لكن الدائرة دارت على قوات الخوارزميين نظرا لانحياز بعض قواتهم إلى جانب كرخان، لكن هناك أقول تذكر أن كرخان انسحب من ميدان المعركة بسرعة وقد يكون ذلك لأسباب داخلية فى مملكته أو تحرشات من جانب العدو المغولى الذى بدأ يظهر على الجانب الشرقى لاسيما أن اسم جنكيز خان قد بدأ يظهر على مسرح الأحداث فى شرق آسيا وبدأ يضغط على الأقاليم التركية وكان أمير قبيلة النايمان التركية وهو جنكيز خان والتمس اللجوء عند كرخان وحدثت العديد من المتاعب فى التركستان الشرقية واضطر أمير خوارزم إلى العودة إلى حدوده السابقة وكان كرخان فى شغل شاغل عن الصراع وربما تركى قوى فى الشرق وهو فى الثانية والتسعين من عمره بعد أن حكم فترة تزيد عن أحد وثمانين عاما وربما يكون أطول حاكم فى التاريخ يحكم هذه الفترة الطويلة وكان كرخان يحكم الشعوب التركية التى تقطن المنطقة الممتدة فيما بين الصين وجيحون.

وبعد ذلك وجد الحاكم الخوارزمى علاء الدين محمد بع موت كرخان وليس له من خصم يتهدده بسوء فى الشرق منه أو فى خراسان ومن هنا فقد راحت أطماعه تدفعه دفعا ليمضى فى سبيل الفتح قد ما لكن قوة أخرى كانت تظهر تشكل خطرا عظيما على العالم الإسلامى لاسيما أن هذا العالم فى ذلك الوقت كانت قد مزقته الانقسامات ولم تعد فيه دولة قوية سوى الدولة الخوازرمية وكان الخليفة العباسى الناصر لدين الله يخشى بأس هذه الدولة، وذلك لأنه من المعروف تمام المعرفة أن العلاقات بين خلفاء بغداد والأمراء الخوارزميين كانت على الدوام على غير ما يرام ذلك لأن الحكام الخوارزميين كانوا يتوقون إلى الاضطلاع بالدور

الذى كان للسلاجقة بإزاء خليفة المسلمون من قبل، لاسيما أن خوارزمشاه كان يطمع فى بغداد فسعى إلى تدبير المؤامرات والدسائس للنيل من الخليفة، لكن عندما أعرض الخليفة العباسى عما كانوا يعرضونه عليه من الحماية فدخلوا معه فى عداء سافر ولكن لا يمكن قبول ما أشيع فى ذلك العصر من أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله حرض المغول على غزو أعدائه الخوارزميين، لكن الخوارزميين دخلوا معه فى عداء سافر، لا سيما بعد أن أعلن الأمير (علاء الدين محمد) فى اجتماع عام وهام خلع الخليفة العباسى وتنصيب العالم (علاء الملك الترمذى) خليفة للمسلمين مكانه ثم سار لتوه إلى بغداد ليقيم هذا الشيخ فى عاصمة الخلافة بدلا من الخليفة الضعيف لكن كانت هناك معوقات حالت دون دخول الأمير الخوارزمى إلى بغداد فقد اضطر الأمير الخوارزمى إلى أن يعود إلى بلاده دون تحقيق أهدافه بسبب زمهرير الشتاء وكثافة الثلوج فى وديان الجبال بالقرب من همدان ولا يزال العبور عبر همدان وكرمشاة يعد أخطر المسالك شتاء.

وفى ذلك الوقت فإن السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى كان يتهم الخليفة العباسى بأنه يحرض على المغول دون أن يمتلك دليلا على اتهامه والخليفة العباسى يعلم يقينا أن غزو المغول الخوارزمية يؤدى بالضرورة إلى الدولة العباسية المتداعية ذلك أنها تقف سدا منيعا يحول بين المغول وبين العراق.

وفى ذلك الوقت كان جنكيز خان يرسل عيونه غربا لجمع الأخبار له توطئة للتقدم لاكتساح أقاليم آسيا الوسطى كان يستخدم عيونه فى لباس تجار حتى يتمكنوا من جمع المعلومات عن أقوى دولة اسلامية فى ذلك الوقت (أترار) وكانت قد وصلت أمير خوارزم رسالة من جنكيز خان أثارت ثأرته بسبب ما جاء فيها من تهديد وأسلوب عنيف يمتهن كرامة الأمير الخوارزمى فأمر بقتل هؤلاء الأسرى وقد كان هؤلاء الاسرى موضع رعاية من جنكير خان وقد كان مقتل هؤلاء من الأسباب الرئيسية التى دفعت حجافل المغول للتقدم فى الأراضى الإسلامية وتدمير كل ما قابلوه فى طريقهم من حضارة وعمران ومعالم (فإن دمهم أريق ولكن كل قطرة منها عنها بسيل جارف من الماء وأن رءوسهم قد سقطت ولكن كل شعرة فيبها كلفت مئات الألوف من الناس حياتهم.

لكن عندما علم جنكيز خان بما حدث له لم يستطيع إلا أن يمسك بسيفه ويشهرة نحو الغرب حيث خوارزم وبلاد أواسط آسيا والعالم الإسلامى وكل العالم المتحضر بما فيه أوربا وهو الذى حقق الانتصارات الباهرة شرقا فى الصين فكان التقدم غربا وهكذا التقدم غربا وهكذا كان الأمير الخوارزمى المثول الأول عن تلك المصائب التى حلت ببلاد ما وراء النهر والعالم الإسلامى الشرقى كذلك جزء من أوربا منذ اللحظة التى اجتاز فيها المغول نهر سيحون فكانت بلاد ما وراء النهر والتركستان الشرقية أول فريسة تقع فى أيدى المغول.

***

opeikandl.com